مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية

الدكتور الطيب برغوث[1]

تمهيــــد:

هذه المداخلة ليست دراسة في أحداث السيرة النبوية مباشرة، ولكنها مقدمة لبناء مشروع رؤية فكرية ومنهجية ضرورية – من وجهة نظرنا – لإحداث نقلة إضافية جديدة في دراسة السيرة النبوية، تكون أكثر شمولا وعمقا وتكاملا من الناحية المعرفية النظرية من جهة، وأكثر فعالية وتأثيرا من الناحية التربوية والاجتماعية والدعوية والحضارية العامة من جهة أخرى.

وما دام المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية، يستهدف محاولة تقييم جهود الأمة في خدمة السيرة النبوية، واستشراف آفاق هذه الخدمة، فإن الرؤية التي تقدمها هذه الدراسة، تقع في العمق المستقبلي لهذه الجهود كلها، لأنها تطرح مشروعا لدراسة السيرة، بل والسنة والقرآن قبل ذلك، من " منظور سنني قرآني كوني شمولي متكامل "، وهو ما نعتقد بأن الحاجة أصبحت ماسة إليه، بعد كل هذه الخدمات الأولية الكبيرة للسيرة النبوية من ناحية، وبعد كل هذه التحولات المعرفية السننية المذهلة في الخبرة الحضارية المعاصرة من ناحية أخرى، وبعد كل هذه التحديات المعرفية والثقافية والحضارية القوية، التي أصبحت الأجيال الإسلامية المعاصرة تتعرض لها من ناحية ثالثة.

إشكالية الموضوع:

إذا كانت المشاريع أو المناهج التغييرية الكبرى في التار يخ، تقوم باستمرار على نظريات أو رأى كونية كلية، تمنح الأفراد والمجتمع رؤية شمولية متكاملة حول " **الدورة الوجودية الكبرى** " للإنسان والحياة والكون؛ منشأ، وغايات، وأهدافا، وتحدد مركز الإنسان في الكون، وتدله على الإمكانات التسخيرية التي وضعت بين يديه لإنجاز أهداف وغايات وجوده في الحياة، وعلى معالم المنهج الذي يستثمر به هذه الإمكانات التسخيرية لإنجاز تلك الغايات والأهداف بالفعالية والكفاءة المطلوبة.

[1] ـــ باحث في البناء الحضاري الإسلامي ـــ النرويج

وإذا كانت الأديان عامة والإسلام منها خاصة، تأتي أساسا لتؤسس لهذه النظريات أو الرأى الكونية الشاملة؛ المفسِّرة والمؤطرة " **للدورة الوجودية الكبرى** " للإنسان وعلاقاته بالله والحياة والكون[1]، وتضع بين يديه منهجا شاملا ومتكاملا لينجز به مهمته في الحياة[2].

وإذا كانت السيرة النبوية هي الساحة أو المجال الفعلي الذي تمثلت فيه حقائق القرآن والسنة في أبعادها الاجتماعية والسياسية والجهادية والحضارية عامة[3]، ووضع فيه القرآن والسنة أو المرجعية النظرية المؤسِّسة للإسلام موضع التطبيق العملي الناجح، كما تدل على ذلك شهادة الواقع التاريخي للدعوة الإسلامية في العهد النبوي[4]، وشهادات الواقع التاريخي الذي تلا ذلك، حتى أن باحثا بريطانيا غير مسلم حاول دراسة أكثر الشخصيات تأثيرا في التاريخ الإنساني، فوجد بأن النبي محمدا يأتي على رأس المائة الأوائل الأكثر تأثيرا في مسار التاريخ الإنساني[5]، ونفس الشهادات قدمها غيره من قبل ومن بعد[6].

إذا كان الأمر كذلك فإن الأسئلة التي تطرح نفسها على هذه الإديان وأتباعها باستمرار، وفي مقدمتها الإسلام وأتباعه كما أسلفنا، باعتباره آخر هذه الديانات السماوية الكبرى، هي: هل في القرآن والسنة نظرية أو رؤية معرفية سننية كونية مركزية كلية متكاملة، لتفسير حركة الحياة وإدارة تحولاتها الحضارية الدائبة؟ ما هي معالم هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية؟ أين تتجلى مصداقية هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية، في مفردات ومعطيات القرآن والسنة والسيرة النبوية؟ وأين التراث التفسيري للقرآن والسنة، وكتب السيرة النبوية، من هذه الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية؟ وهل توجد في كتب التفسير وشروح السنة القديمة والحديثة، وكتب السيرة النبوية، معطيات سننية تعين على ترسيخ الوعي بهذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية لدى أجيال الأمة؟ وهو ما يضع بين يديها أهم شروط أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية نهضتها الحضارية المطلوبة؟ ويدفع بهذه النهضة قدما نحو آفاق الإقلاع الحضاري، ومنها إلى مراحل المواكبة والمنافسة والريادة أو الإمامة الحضارية، التي هي ذروة سنام المداولة الحضارية، التي تتحرك نحوها حركة الخلافة البشرية في الأرض بشكل مطرد.

---

(1) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت. ص/33

(2) المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، دار طيبة، الرياض. ص/13

(3) صحيح الجامع، محمد ناصر الدين الألباني، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت 1408، حديث رقم/4811

(4) أنظر للباحث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها بجزئيه 1، 2.

(5) الخالدون مئة، مايكل هارت، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة. (د.ت)

(6) الأبطال، توماس كارلايل، مكتبة مصر، القاهرة 1994. ص/52.

وما دمنا بصدد الحديث عن السيرة النبوية، باعتبارها المجال العملي لتجسيد قيم القرآن والسنة في واقع الحياة[1]، كما أسلفنا، فهل في دراسات السيرة قديما وحديثا، ما يدلنا على وجود هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية، التي كانت تقف وراء بناء " **الدورة الإنجازية** " للأفعال والمواقف والتصرفات النبوية، وتخرجها إلى حيز الوجود الفعلي في كامل أصالتها الفكرية والروحية، وفعاليتها الإنجازية، وتكامليتها الاجتماعية، واطراديتها التاريخية [2]؟

ما هي معالم هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية، التي نستطيع من خلالها قراءة السيرة النبوية قراءة سننية متكاملة، توسِّع مجال الرؤية إلى معطياتها التاريخية، وإلى مفرداتها الفقهية والأخلاقية والتربوية الجزئية المتشعبة في كل مناحي الحياة وشعابها، والتي تعرضها المنهجية التأريخية والفقهية الفروعية عرضا وصفيا تقريريا جزئيا، لا ينفذ إلى ما وراءها من **نواظم فكرية منهجية سننية كلية شاملة متكاملة،** تحكمت في صياغتها بذلك الشكل الذي نراها عليه في نهاية كل " **دورة إنجازية** " لفعل من أفعاله، أو موقف من مواقفه، أو تصرف من تصرفاته عليه الصلاة والسلام؛ في الفهم، أو الالتزام، أو الدعوة، أو البناء، أو المواجهة[3]؟ والتي بإمكانها أن تصبغ " **الدورة الإنجازية** " لأي فعل أو موقف أو تصرف إقتدائي أو تأسوي به عليه الصلاة والسلام، بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية التاريخية كذلك، إن عرف المقتدي والمتأسي بها، هذه النواظم الفكرية والمنهجية السننية الكلية المتكاملة، واستطاع أن يستثمرها بالكفاءة المطلوبة في " **الدورات الإنجازية** " لأفعاله ومواقفه وتصرفاته وأدائه السلوكي والاجتماعي بصفة عامة؟

وتبرز هذه الإشكالية في المجتمع العولمي المعاصر بشكل أكثر حدة، لتيسُّر إمكانات التواصل الفكري والثقافي، وتدافع الأفكار والنماذج الثقافية والاجتماعية والحضارية مباشرة، بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنساني[4]. ولا شك أن هذا التدافع الثقافي والاجتماعي والحضاري المطرد، يطرح تحديات وجودية كبرى على كل الأفكار والنماذج الثقافية والاجتماعية والحضارية المتدافعة، خاصة في ضوء النضج الفكري الإنساني المعاصر، وسيادة المنطق العقلاني التحليلي السنني النقدي النسبي، وانجذاب قطاعات واسعة من الناس في عالم اليوم إلى منطق الواقعية بل وبالبرجماتية المادية التي تؤمن بالمحسوسات وتقيِّم الأفكار وتحكم عليها، بقدر ما فيها من فعالية اجتماعية ملموسة[5]..

---

[1] الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، دار الأمان للنشر، القاهرة 1995. ص/60

[2] إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، الطيب برغوث، وزارة الأوقاف الكويتية 2007. ص/110

[3] السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مركز بحوث السيرة والسنة النبوية، قطر 1991. ج1/14

[4] أنظر على سبيل المثال: العولمة والإسلام: نظرتان للعالم، سيف الدين عبد الفتاح، دار الفكر، القاهرة 2009.

[5] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق 1988. ص/111

وهو ما يجعل أية فكرة أو نموذج ثقافي أو اجتماعي أو حضاري، لا يستوفي **مقاييس العقلانية*** **التحليلية النقدية السننية الشمولية التكاملية،** ويصر على التشبث بالتجزيئية والتقريرية والحرفية والتلقينية والتلفيقية، في تربيته وحواره وأدائه الداخلي، أو في تواصله وتدافعه الثقافي والاجتماعي والحضاري الخارجي، ينهار أو يتهمش في معتركات المدافة والمداولة الحضارية[1]، ويعرِّض أجياله لمخاطر الاستلابية والإمعية والغثائية الثقافية والحضارية المنهكة *.

هذه هي الإشكالية التي تتعرض لها هذه الورقة: هل العلاقة بالسيرة، وقبل ذلك بالقرآن والسنة، تقف عند عتبات الاستيعاب الشمولي للمعطيات التاريخية والفقهية الجزئية للسيرة النبوية، والتحقق أو الاستيثاق من صحتها السندية وأصالتها الحكمية، والشروع في تحقيق عملية الاقتداء والتأسي بها بعد ذلك؟ أم أن هذه العلاقة ينبغي أن تتجاوز هذه العتبة إلى ما هو أبعد وأشمل من ذلك، وهو اكتشاف **النواظم الفكرية والمنهجية السننية الكلية المتكاملة،** التي صنعت تلك المعطيات التاريخية والفقهية الجزئية، وأخرجتها إلى حيز الوجود بذلك الشكل النموذجي؟ أي ضرورة استيعاب النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية التي يطرحها الإسلام لتفسير وإدارة أو تدبير الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وحماية منجزاتها، وضمان استمرايتها التاريخية؟

هدف الموضوع:

وعلى هذا الأساس فإن الهدف المحوري لهذه الدراسة هو: محاولة وضع إطار فكري ومنهجي لدراسة السيرة النبوية **من منظور سنني شمولي متكامل،** يرتكز على نظرية أو رؤية سننية كلية متكاملة في فلسفة التاريخ والحضارة، أو في فلسفة الاستخلاف في الأرض بصفة عامة[2]. وهذه النظرية أو الرؤية الكلية المتكاملة، مستخلصة من القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية الشريفة.

---

* إنني لا أستعمل العقلانية هنا بمفهومها الغربي الحداثي المنكفئ على الخبرة التجريبية المحسوسة، ولكن استعملها في إطار المفهوم الإسلامي السنني المنفتح على كل المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة التي وضعها الله تعالى بين يدي الخلافة البشرية في الأرض، كما سيرد توضيح ذلك لاحقا في هذا البحث.

[1] الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2005. ص/19

* من أجل الانتباه إلى خطورة هذا الأمر، يمكن دراسة أسباب الاستلاب الثقافي الذي اجتاح فئات معتبرة من النخبة في المجتمعات الإسلامية، فأصبح بعضها يساريا أو حداثيا وبعضها لبراليا وبعضها تلفيقيا مائعا.. لما انفتح على أفكار وأطروحات هذه النماذج الثقافية القائمة على العقلانية التحليلية النقدية، حتى وإن كانت جزئية وتنافرية، فوجد فيها ما لم يجده في محيط الثقافة التقليدية التقريرية التلقينية التجزيئية الحرفية التبريرية.. فتبناها وانحاز إليها، وحاول إخضاع كل شيئ إلى مفاهيمها ومضامينها ومناهجها بعد ذلك، وهو ما أحدث تنافرا واهتلاكا مزمنا في العالم الإسلامي، حال دون تحقيق النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة.

[2] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ط3، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية 1983. ص/6

فالقرآن وصحيح السنة النبوية يعتبران دليلا سننيا مرجعيا كليا متكاملا، وضعه الله تعالى بين يدي البشر لتفسير وتأطير حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وأرفقه بتطبيق عملي حي ممثلا في السيرة النبوية الشريفة[1]، فجاء الدليل المرجعي بذلك متكاملا في أبعاده النظرية والتطبيقية معا، ولا يخفى أن أعظم النظريات أو الرؤى المفسرة لحركة الوجود عامة وحركة الاستخلاف البشري في الأرض خاصة، هي ما تكامل فيها المشروع النظري مع النموذج العملي في أبعاده الفردية والاجتماعية معا[2]، وهذا ما يراه الدارس مجسدا في السيرة النبوية[3]، التي تمنحنا حقلا خصبا للدراسة السننية الطامحة إلى استخلاص الرؤية أو النظرية الكلية لفلسفة التاريخ والحضارة. ولا شك أن هذا المنظور السنني هو الذي ينبغي أن تُدرَس حركة السيرة خاصة، وتفسَّر معطيات القرآن والسنة وحركة التاريخ الحضاري للأمة والإنسانية عامة على ضوئه.

مفهوم المنظور السنني وأهميته في دراسة السيرة النبوية:

نشرع الآن في تناول الفقرة الأولى من صلب الموضوع وهي مفهوم المنظور السنني، مبتدئين ببعض الإشارات المتصلة بالمفهوم اللغوي للسنة، ثم تحديد المفهوم الاصطلاحي الذي نعتمده في هذه الدراسة.

المقصود بالمنظور السنني:

في مفهوم السنن[4]: وعلى هذا الأساس فإن السنن تعني الأنظمة والنواميس والقوانين الثابتة، التي أودعها الله تعالى في كل مفردة كونية لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام. وليس هناك مفردة كونية لا تخضع لنظام سنني ذاتي وكوني. فالكون كله محكوم ومنظوم بشبكة من العلاقات السننية المترابطة، التي يخدم بعضها بعضا بشكل مطرد لا يتغير ولا يتبدل[5]، كما جاء بيان ذلك في مواطن عديدة في القرآن مثل قوله تعالى: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**)(فاطر: 43).

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، المطبعة الأدبية، القاهرة – مصر 1317. ج90/2

[2] لمحات في فن القيادة، ج. كورتوا، ترجمة هيثم الأيوبي، ط3، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت – لبنان 1980. ص88

[3] الرسالة المحمدية، مرجع سابق، ص/8، 68

[4] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر، بيروت – لبنان، مادة سنن . المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص/481 . المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان (د. ت). ص/245

[5] جامع الرسائل، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق رشاد سالم، دار العطاء، الرياض – السعودية 2001. ج54/1

في مفهوم المنظور[1]:

وبغض النظر عن تنوع التعاريف الاصطلاحية له، من باحث وحقل معرفي إلى آخر[2]، ولكنها في النهاية تتمحور حول كون المنظور يعني **زاوية أو مركز الرؤية الفكرية الكلية التي تؤثر على نظرة الإنسان إلى الله والكون والحياة وحركة التاريخ بصفة عامة، وتحكم موقفه العملي من ذلك كله، وتحدد طبيعة فعاليته الاجتماعية في الحياة من ناحية، ودوره في الحركية الحضارية في مجتمعه وعصره من ناحية أخرى، وموقعه من مسار المداولات الحضارية التي تخضع لها الحياة البشرية من ناحية ثالثة.**

ومن هذا المنطلق فإنه لا يوجد إنسان ليس له منظور فكري ثقافي مرجعي كوني يرتكز عليه، وينطلق منه في تكوين رؤية وموقف مما يحيط به من أحداث الكون والحياة وظواهرها المختلفة[3]، بغض النظر عن طبيعة هذا المنظور ومدى مصداقية ما يرتكز عليه من معطيات سننية، أو يصدر عنه من تصورات ومواقف. فالعقل الإنساني مفتوح على المؤثرات الذاتية والخارجية، بشكل اضطراري[4]؛ إذ ليس متاحا له أن يعطل حواسه وذهنه عن تلقي الخواطر والمؤثرات الخارجية إلا لحظات، فهو مضطر لتلقى هذه المؤثرات بطريقة أو أخرى، وبناء منظوره ورؤيته التفسيرية لحركة الوجود والحياة، ولظواهرها الطبيعية والحضارية المختلفة، على ضوء ذلك[5].

فالمنظور في النهاية، هو حصيلة المعطيات الفكرية التي تستقر في الذاكرة الإنسانية، وتزود الإنسان بالمنهج الذي يستدعي به تلك المعطيات، ويقوم باستثمارها لتحقيق الاستجابة المطلوبة لحاجاته الذاتية والاجتماعية المختلفة من ناحية، ومواجهة التحديات التي تحيط به في الحياة من ناحية أخرى. **فنوعية أفكار الإنسان هي التي تصنع طبيعة تفكيره، وطبيعة تفكيره هي التي تصنع نوعية شخصيته، ونوعية شخصيته هي التي تحدد طبيعة سلوكه وطبيعة فعاليته في الحياة إلى حد بعيد**[6].

في مفهوم المنظور السنني:

---

[1] المفردات في غريب القرآن، المرجع السابق. ص/497، لسان العرب، مادة: نظر.

[2] العلم في منظوره الجديد، روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانسيو— ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1989. ص/15

[3] التفسير الديني للتاريخ، محمود الشرقاوي، مطبوعات الشعب، القاهرة. ص/6

[4] شبابك مدى الحياة، ممهت أوز، ومايكل رويزن، ترجمة سعيد العظم، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان 2008 ص/42

[5] الفوائد، ابن قيم الجوزية، ط2، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان 1973. ص/31، 173، 175

[6] كن أنت نفسك، كوب مايير، الترجمة النرويجية، أوسلو 1983 . ص/7

وبناء على ما سبق، فإنه يمكننا أن نحدد المفهوم العام للمنظور السنني كما نستعمله في هذه الدراسة، بأنه **الموقف المعرفي الذي ينطلق في قراءته ودراسته وتفاعله مع الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، والأطر المرجعية المؤسسة والموجهة لها، من رؤية أو نظرية تفسيرية كلية متكاملة، منسجمة مع فطرة الوجود الكوني والإنساني تركيبا ووظيفة**[1].

فالمنظور السنني إذن منظور مرجعي محوري، تقاس إليه أو به حركة الاستخلاف البشري في الأرض، لمعرفة مدى قربها من المسار الطبيعي الذي كان ينبغي لها أن تتحرك فيه أو بعدها عنه، بغض النظر عن الاختلافات القائمة بين الأطر المرجعية الموجهة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، لأن حصائل الخبرة السننية البشرية المتتالية، تتجه باستمرار نحو دعم وتعميق بناء هذا المنظور المرجعي السنني الشمولي التكاملي، وتوسيع دائرة الفهم المشترك لثوابته السننية المطردة بين البشر[2].

فالمصداقية العلمية والوظيفية للمنظورات المرجعية المؤطرة للموقف الإنساني الفكري والعملي من الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، تقاس كلها بمدى سننيتها؛ أي بمدى مطابقتها مع الأنظمة السننية المودعة في المفردات الكونية، أو قربها منها أو بعدها عنها ومصادمتها لها[3].

أهمية المنظور السنني الكلي:

ونحن هنا لا نتحدث عن المنظور السنني المرجعي في جزئياته السننية اللامحدودة، ولكننا نتحدث عنه في كلياته المحورية أو المركزية الكبرى، التي تنتظم في إطارها كل هذه المفردات السننية الكونية الجزئية الهائلة، ويؤدي كل منها وظيفته المقررة له في الكون من خلالها. فالمنظور السنني الذي نعنيه هنا يتمحور حول الحديث عن الغايات والمقاصد الكلية لحركة الحياة ابتداء، وعن الآليات السننية الكلية المحركة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، نحو هذه الغايات والمقاصد الكلية ثانيا.

فهدف البحث ينصب حول الإطار الكلي للرؤية أو النظرية الكلية العامة، التي يطرحها القرآن لتفسير صيرورات حركة الاستخلاف البشري في الأرض، لتُقرأ وتُدرس مفردات السيرة والسنة والقرآن، وتقيَّم حركة التاريخ الحضاري البشري، وتُستشرف آفاق صيروراته الحضارية على ضوئها، وليس على ضوء رؤى أو نظريات جزئية معزولة عن قطبها المركزي العام، ومنفلتة من

---

[1] في ظلال القرآن، دار الشروق، ط15، القاهرة 1988. ج 771/2

[2] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ط2، دار الفكر، دمشق – سورية 1998. 15/25.

[3] تفسير المنار، محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990. 174/4

نطاق جاذبيته السننية الناظمة لجزئيات حركة الحياة، والمكثّلة والشاحذة لفاعليتها التسخيرية أو الوظيفية، والحامية لها من التنافر والإهتلاك والهدر.

وخلاصة القول هنا هي أن المنظور السنني الكلي أو الكوني، ضرورة معرفية ومنهجية وحضارية ووجودية بالنسبة للإنسان، لا تغني عنه المنظورات المعرفية السننية الجزئية بأي حال من الأحوال، مهما كانت مصداقيتها المعرفية. فبدون هذه النظرة السننية الكلية، تتجزأ وتتفكك وتتنافر أمام الإنسان المعرفة السننية الجزئية ابتداء، ثم ينعكس ذلك التنافر المعرفي على رؤيته لنفسه وللحياة وللكون من حوله ثانيا، وعلى علاقاته بمصدر النشأة الكونية وغايات هذه النشأة ومآلاتها ثالثا، وعلى طبيعة فعاليته الثقافية والاجتماعية والحضارية في الأرض رابعا، وعلى مصيره الأخروي خامسا.

مفهوم المنظور السنني لدراسة السيرة النبيوة:

وبناء على هذا المفهوم الإطاري العام للمنظور السنني، فإن المقصود بالمنظور السنني لدراسة السيرة النبوية في هذه الورقة، هو محاولة رسم خريطة كلية لهذه الرؤية الكونية السننية الكلية المتكاملة، كما جاء بها القرآن عامة، وتجسَّدت عمليا في السنة والسيرة النبوية خاصة من ناحية، والتأكيد على الأهمية القصوى لدراسة السيرة النبوية وحركة التاريخ الحضاري البشري بصفة عامة على ضوء هذه الرؤية من ناحية أخرى.

فالهدف الأساس من هذه الدراسة، هو البحث عن الرؤية أو النظرية الكلية التي يطرحها القرآن لتفسير حركة الوجود والحياة بصفة عامة، وكيف تجلت معطيات هذه الرؤية أو النظرية الكلية في السيرة النبوية؟ باعتبارها الساحة الفعلية التي تجسدت فيها حقائق هذه الرؤية أو النظرية الكلية فعليا[1]، كما سبق بيان ذلك في إشكالية البحث وأهدافه. فالوقوف على معالم هذه الرؤية أو النظرية الكلية، سيعطي للعلاقة المعرفية والتسخيرية أو الاستثمارية بالسيرة النبوية، والسنة والقرآن والخبرة البشرية عامة، منحى جديدا أكثر أصالة وفعالية وتكاملية، ينقل هذه العلاقة من حالة الحرفية الآلية، والتجزيئية المفككة، والانتقائية التلفيقية، والذوقية المميعة، والتنافرية المنهكة، والزهد فيها والتهميش لها، بل والمخاصمة الجاهلة لها.. إلى العلاقة المقاصدية السننية المنضبطة، التي تنفذ إلى ما وراء الوقائع التاريخية، والأحكام الفقهية، والتوجيهات الأخلاقية الجزئية، من نواظم ومؤطرات سننية كلية مطردة، مؤثرة في صياغة " **الدورات الإنجازية** " للأفعال والمواقف والتصرفات النبوية[2]، حتى

[1] السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، أحمد جمال العمري، دار المعارف، القاهرة 1988. ص/157

[2] سلطة المنهج في الحركة النبوية، الطيب برغوث، النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 1012. ص/113

يتسنى تحقيق الاقتدائية الفعالة به، والاستثمارية الصحيحة لسيرته وسننه في تلبية حاجات حركة الحياة ومواجهة تحدياتها المتلاحقة.

إن السيرة النبوية تمت دراستها من منظورات معرفية عديدة[1]، سيتطرق لها البحث لاحقا، ولكنها لحد الآن لم تدرس بشكل واضح، من خلال منظور سنني كلي متكامل، أي من خلال **نظرية أو رؤية سننية كلية متكاملة في فلسفة التاريخ والحضارة**، تحلّل وتفسّر وتستَلهَم وقائع السيرة في ضوئها، بالرغم من أن ذلك شكّل الاهتمام المحوري للقرآن الكريم، بل وللسيرة ذاتها، وهو ما ينبغي تداركه بكل جدية، لاستنقاذ الروح السننية للقرآن والسنة والسيرة من منطق الحرفية والتجزيئية والتنافرية. فجل الجهود المعرفية التي أنجزت في السيرة النبوية لحد الآن، ما هي في الحقيقة إلا مقدمة لهذه النتيجة أو المقصد المعرفي التربوي الذي يجب أن تتجه نحوه اهتمامات البحث العلمي المتقدم على مستوى الأمة، سواء في السيرة، أو السنة، أو القرآن، أو التاريخ الحضاري للأمة والإنسانية عامة، كما نبه إلى ذلك القرآن في مواطن عديدة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)(آل عمران: 137).

فاكتشاف سنن الله الكلية في صيرورات حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتأسيس الوعي بها، وبكيفية استثمارها في تلبية حاجات هذه الحركة الاستخلافية ومواجهة تحدياتها، هو مقصد كل العلوم المتصلة بالخلافة البشرية في الأرض، بل ومقصد الحركة الرسالية عبر التاريخ قبل ذلك، فقد جاءت لتعلم الإنسان قطاعا من السنن الكلية التي لا طاقة للعقل البشري بها، كما قال بن تيمية، بأن " الأنبياء يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول "[2]، أي بما تحار فيه العقول وتعجز عن إدراكه، وليس بما تستقل العقول بإدراكه، فإنه موضوع تحت سلطة العقل، إلا أن يشذ العقل عن المقصد والهدف ويضر بهما، فيتدخل الوحي لتسديده.

كما أن هذه السنن المحورية للحياة، شكلت جوهر منهج القرآن كذلك، في رصد وتحليل وتفسير حركة التاريخ البشري واستشراف آفاقها المستقبلية[3]. فكيف تقف علاقتنا بالقرآن والسنة والسيرة، والخبرة الحضارية البشرية عامة، عند عتبة التأريخ وتوثيق الأحداث واسترجاعها، والاقتصار على محاولة استخلاص ما فيها من أحكام وآداب وتوجيهات وخبرات جزئية متناثرة، بمعزل عن هذه

---

[1] مختصر الجامع في السيرة النبوية، سميرة الزايد، المطبعة العلمية، دمشق 1995 . 24/1.

[2] مجموعة الرسائل والمسائل، عبد الحليم بن تيمية، علق عليها محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي، القاهرة. 82/1.

[3] تفسير المنار 273/2

الرؤية السننية المركزية الكلية، التي يجب أن تنتظِم وتتحرَّك وتتفاعل في إطارها، كلٌّ هذه المفردات السننية الجزئية التي لا حصر لها من ناحية، وتتأطر بها كل أوجه تفاعلات النشاط البشري الذي لا حدود لمتغيراته ومستجداته المتوالية من ناحية أخرى؟

ولا شك أن دراسة السيرة والسنة والقرآن والخبرة البشرية عامة، من هذا المنظور السنني الكلي، تعد مرحلة متقدمة جدا، بل هي المرحلة الأخيرة في **مسار العلاقة المعرفية** بالسيرة والسنة والقرآن والخبرة الحضارية البشرية، التي سترتكز عليها المرحلة التسخيرية أو الاستثمارية من " **الدورة الإنجازية** " للفعل أو الموقف أو التصرف، بعد ذلك، وتتوقف عليها أصالتها وفعاليتها وتكامليتها واطراديتها التاريخية إلى حد بعيد. فإذا ما استوفت هذه المرحلة المعرفية من " **الدورة الإنجازية** " للفعل، شروطها السننية المطلوبة، جاءت المرحلة الثانية من هذه " **الدورة الإنجازية** "، وهي مرحلة التسخير والاستثمار والإنجاز الفعلي للموقف أو العمل، إيجابيةً مؤثرةً. وإذا لم تستوف هذه المرحلة المعرفية من " **الدورة الإنجازية** " للفعل أو الموقف، شروطها السننية المطلوبة، أثَّر ذلك سلبا على المرحلة الإنجازية الثانية من دورة الفعل، وحرمه من الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية المطلوبة، بحسب ذلك.

أهمية المنظور السنني في دراسة السيرة النبوية:

وإذا تساءلنا بعد هذا، عن مدى أهمية هذا المنظور السنني في دراسة السيرة والسنة النبوية، وقبلهما القرآن الكريم، وبعدهما الخبرة الحضارية البشرية بصفة عامة، فإنه يمكننا أن نشير إلى عدة اعتبارات تؤكد لنا الأهمية الكبيرة، بل والمحورية لهذا المنظور السنني؛ ليس في المجال المعرفي النظري فحسب، وإنما في المجال العملي الحياتي كذلك[1].

وسأشير في البداية إلى اعتبارات كلية أساسية، تؤكد مدى الأهمية القصوى للمنظور السنني في حركة الحياة بصفة عامة، ثم أعقبها بحديث عن الاعتبارات الخاصة بدراسة السيرة النبوية على ضوء هذا المنظور بعد ذلك، ثم أردفها بحديث عن الانعكاسات السبية لاستمرار هذا الضمور في العناية بالمنظور السنني في دراسة السيرة والسنة والقرآن والخبرة الحضارية البشرية، في إطار تقييم مركز للتراث المعرفي الخاص بالسيرة النبوية بصفة عامة، ثم أنهي الموضوع بحديث مركز عن معالم هذا المنظور السنني الذي أتصوره لإنجاز هذه المهمة المعرفية التربوية الثقافية الشرطية في أية نهضة حضارية حقيقية للأمة.

---

[1] الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2003. ج31/1

الاعتبارات المؤسِّسة للمنظور السنني:

فما هي يا ترى هذه الاعتبارات المؤسسة للمنظور السنني والداعمة له؟ وفيما يلي إشارة لبعض عناوين هذه الاعتبارات الرئيسة: **الاعتبار الكوني المنتظم. الاعتبار العقدي. الاعتبار القرآني. اعتبار الوعي التاريخي. الاعتبار الحضاري. الاعتبار المعرفي المقاصدي. الاعتبار العلمي الموضوعي. الاعتبار الشمولي التكاملي. اعتبار توسيع نطاق المشترك الإنساني. الاعتبار التوازني. الاعتبار التفسيري. الاعتبار العبادي.**

نظرة على الدراسات السابقة في السيرة النبوية:

الآن وبعد هذه الإطلالة المختصرة على أهمية المنظور السنني الشمولي التكاملي الذي ينبغي أن يحكم العلاقة المعرفية والوظيفية أو التسخيرية بالسيرة والسنة والقرآن والخبرة الحضارية للإمة والإنسانية عامة، نلقي بعض الأضواء على طبيعة العلاقة المعرفية للأمة بالسيرة النبوية خاصة، ونحاول تحديد ما هي الزوايا أو الجوانب التي تمت تغطيتها في هذه العلاقة المعرفية؟ وكيف؟ وما هي الزوايا والجوانب التي ما تزال بحاجة إلى تغطية؟ حتى يتم وضعها ضمن خريطة أولويات الحركية المعرفية لنخب المجتمع على المستوى الفردي والمؤسسي معا.

ومن يتأمل في تراث السيرة النبوية يلحظ مدى تنوع وشمولية ودقة وصحة واستمرارية العناية بالسيرة النبوية قديما وحديثا، وبلا انقطاع، حيث لم يخل عصر أو بيئة من تأليف كتب عديدة عن سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وحياته[1]، حتى قال مستشرق معروف بشدة تحامله على الإسلام ونبيه، وهو (مرجليوث) سنة 1905: " أن الذين كتبوا في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، **لا ينتهي ذكر أسمائهم**، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلسا بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية "[2].

وعن شمولية هذه الكتابات، واستيعابها لكل تفاصيل حياته عليه الصلاة والسلام البشرية والرسالية معا، بشكل لا مثيل له في تاريخ حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ناهيك عن تاريخ حياة من دونهم من الزعماء والقادة الفكريين أو الروحيين أو الاجتماعيين أو السياسيين قديما وحديثا، يقول مستشرق آخر ألماني وهو (جون ديون بورت) سنة 1870: " لا ريب أنه لا يوجد

---

[1] أنظر على سبيل المثال: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فاروق حمادة، ط3، دار القلم، دمشق 2002. معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1982.

[2] السيرة المحمدية، سليمان الندوي، مرجع سابق/83

في الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن، من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلا وأشمل بيانا، مما يعرفون من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وأحواله "[1].

وعن دقة وموضوعية ما كتب عن سيرته وحياته عليه الصلاة السلام، وبعده عن الخرافة والأساطير والمرويات المستهجنة، التي كثيرا ما حفت بالتأريخ لحياة بعض العظماء، بل وحتى لحياة بعض الأنبياء عليهم السلام، يقول باحث جامعي وأكاديمي لاهوتي آخر وهو (ريورند باستور سميث) سنة 1874: " إنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاما، ولا مستحيلات، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة "[2].

فحياته الرسول محمد عليه الصلاة والسلام معروفة بشكل شامل ودقيق وموضوعي، لم يترك المسلمون شيئا من تفاصيلها الخِلقية والخُلقية والهندامية والروحية والسلوكية والأسرية والاجتماعية والدعوية والجهادية والسياسية والرسالية والبشرية عامة.. إلا وجمعوا عنها أدق التفاصيل، ووصفوها وصفا دقيقا استوعب حتى عدد شعرات الشيب في لحيته ورأسه[3]، وأنواع وألوان ملابسه ومراكبه..[4].

أبعاد العناية بالسيرة النبوية:

وهذه العناية المتنوعة والشاملة والدقيقة والمستمرة بالسيرة والسنة النبوية عامة، لم تأت من فراغ، بل كانت وراءها دوافع دينية ونفسية عميقة، أعطتها هذه القوة الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية غير العادية، ودفعت بها إلى هذه الآفاق الاستثنائية من الحرص على معرفة كل شيء عن حياة رسول الله وسيرته ودعوته أولا، ثم الحرص كذلك على تحقيق الاقتداء المطلوب به عليه الصلاة والسلام ثانيا.

وقبل المضي في الحديث عن الأشكال التي أخذتها العناية بالسيرة النبوية، نشير باختصار إلى الدوافع الرئيسة أو الكلية التي كانت وراء هذه العناية غير العادية بالسيرة والسنة النبوية. فنحن في حاجة إلى معرفة **لماذا ندرس السيرة النبوية؟ ما حاجتنا إلى ذلك؟ ما هي شروط تحقيق ذلك؟ هل ما تم توفيره من شروط كان كافيا لتحقيق الاستفادة المطلوبة من السيرة والسنة والقرآن عامة؟**

---

[1] نفسه/ 84

[2] نفسه/ 85

[3] صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة 1400. حديث رقم/5900

[4] قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي و سلاحه ودوابه، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، نشر أضواء السلف 2002. (موقع مكتبة المدينة الرقمية).

فعندما نعرف الإجابة عن هذه الأسئلة الهامة، تتحدد لدينا معايير تقييم ما تم إنجازه من أجل بناء علاقة معرفية وعملية أو استثمارية أصيلة وفعالة بالسيرة والسنة والقرآن عامة من جهة، كما نتمكن من معرفة الاحتياجات المطلوبة التي تدفع بهذه العلاقة المعرفية والعملية إلى المزيد من الأصالة والفعالية من جهة أخرى.

وسنركز هنا على خمسة محاور أو أبعاد رئيسة في هذه العناية، تشكل محاور كلية تندرج ضمنها دوافع وأهداف فرعية كثيرة، يذكرها كثير من دارسي السيرة أثناء حديثهم عن أهمية دراسة السيرة النبوية:

تحقيق فهم أشمل وأعمق للرسالة[1]. تحقيق دافعية روحية ونفسية أعلى نحو الرسالة [2]. تحقيق الاقتدائية أو الاستثمارية المقاصدية المطلوبة[3]. تحقيق الفاعلية الدعوية أو الإشعاعية الاجتماعية المطلوبة[4]. تعزيز الوعي بالأهمية المعرفية لدراسة السيرة النبوية[5].

هذه باختصار هي مقاصد دراسة السيرة النبوية، ومبررات الاهتمام بها، وهي مقاصد ومبررات ترفع العلاقة بالسيرة النبوية إلى أعلى مستويات الأهمية بل والضرورة بالنسبة لكل مسلم، بل لكل إنسان ينشد الحقيقة أولا، ثم المصلحة ثانيا، ثم النفع العام للبشرية ثالثا، ثم الوقاية الذاتية من الأخطار الدنيوية العاجلة والأخطار الأخروية الآجلة رابعا. ففقه السيرة مفتاح أساس للنفاذ إلى عمق القرآن والسنة، ومفاصل المنظور السنني الكوني الذي يحكم حركة الخلافة البشري في الأرض، ويؤطر صيرورتها الحضارية الدائبة، ويؤثر على المصائر الأخروية للبشر.

مناظير دراسة السيرة النبوية:

[1] جوامع السيرة، ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف، القاهرة /2، حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، مرجع سابق 240/1، زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998. 68/1، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة، بحث وتحقيق، محمد الصادق عرجون، ط2، دار القلم، دمشق 1995. ج7/1

[2] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق 1988. ص/102، 111،، الموافقات 234/3، لمحات في فن القيادة، كورتوا، مرجع سابق/88

[3] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسبوري، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1374. حديث رقم/2577

[4] أنظر ما ذكره الشاطبي في فرض الكفاية: الموافقات 129/1، تفسير المنار 23/4

[5] أنظر هنا على سبيل المثال: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي، الأبطال لكاريل، وشمس العرب تسطع على الغرب لزغريد هونكة، والخالدون مئة لمايك هارت..

من هذه المنطلقات والمقاصد العقدية والمعرفية والعملية والدعوية المتكاملة، تحركت عناية المسلمين بالسيرة والسنة النبوية عامة، وحاولوا النفاذ إليها عبر مداخل ومناظير متنوعة، يمكن إجمالها في المناظير التالية بشكل مختصر، نستبين منه الخريطة المعرفية المنجَزة للسيرة النبوية، والمساحات المخدومة والمستثمَرة منها، وتلك التي ما تزال في حاجة إلى خدمة واستثمار، لنركز عليها في المشاريع المعرفية الستقبلية:

المنظور التأريخي[1]. المنظور الشمائلي[2]. المنظور الخصائصي[3]. المنظور الدلائلي[4]. المنظور الفقهي[5]. المنظور السياسي[6]. المنظور الحركي[7]. المنظور الصوفي[8]. المنظور النقدي التقويمي[9]. المنظور الموضوعي[10].

نظرة تقييمية في هذه الدراسات:

لقد اتضح لنا من خلال هذه الإشارة إلى مناظير دراسة السيرة النبوية، أن السيرة قد دُرست وخدمت فعلا من زوايا أساسية متعددة، استطاعت أن تضع أمام أجيال الأمة والبشرية عامة، المادة المعرفية الأولية التي ترسم لنا معالم السيرة النبوية؛ باعتبارها حركة تجسيد نموذجي حي لحقائق القرآن والسنة ومقاصدهما في واقع الحياة، بشكل شامل ودقيق، يوفر الشروط الضرورية لتحقيق الاقتدائية المطلوبة بهذه السيرة النموذجية، والاستثمارية الفعالة لمعطياتها الغنية المتنوعة، في تحقيق المزيد من

---

(1) أنظر على سبيل المثال: السيرة النبوية الصحيحة، ومرويات السيرة النبوية للعمري، وصحيح السيرة النبوية لمحمد بن رزق الطرهوني، صحيح السيرة للألباني، صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية لابن هشام إعداد مجدي السيد، صحيح القصص النبوي لسليمان الأشقر، وسلسلة صحيح السيرة النبوية لأبي إسحاق الحويني..

(2) أنظر على سبيل المثال: الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية للترمذي، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني..

(3) أنظر على سبيل المثال: غاية السول في خصائص أفضل المخلوقين لابن الملقن، والخصائص الكبرى للسيوطي..

(4) أنظر على سبيل المثال: دلائل النبوة للبيهقي، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني، وأعلام النبوة للماوردي..

(5) أنظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، وزاد المعاد لابن القيم، وفقه السيرة لرمضان البوطي، وفقه السيرة لزيد بن عبد الكريم..

(6) أنظر على سبيل المثال: التراتيب الإدارية للكتاني، والوثائق السياسية للعهد النبوي لحميد الله، والتفسير السياسي للسيرة النبوية لرواس قلعجي، والتربية السياسية في السيرة النبوية لمنير الغضبان، والرسول لسعيد حوى، الأعمال السياسية السلمية للنبي صلى الله عليه وسلم والأحكام المستنبطة منها لمصطفى الغزاوي..

(7) أنظر على سبيل المثال: فقه السيرة للغزالي، المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان، والمنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها لبرغوث، وفقه الدعوة في صحيح البخاري لسعيد القحطاني..

(8) التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت 2003 /46

(9) أنظر على سبيل المثال: الشفا للقاضي عياض، الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية، دراسات في السيرة لسرور، الاستشراق في السيرة النبوية لعبد الله النعيم، المستشرقون والسيرة النبوية لعماد الدين خليل..

(10) أنظر على سبيل المثال: زاد المعاد لابن القيم، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها لبرغوث، في السيرة قراءة لجوانب الحذر والحماية لإبراهيم علي، فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة لعبد السلام الكربولي..

الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية أو الاستمرارية التاريخية، في جهود التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري الذي تنشده الأمة والإنسانية باستمرار.

والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه علينا الآن، والذي يشكل صلب الإشكالية التي انطلقت منها هذه الدراسة، هو: **هل استطاعت هذه المناظير المتنوعة أن تغطي أهم الحاجات وتستوفي أهم الشروط المعرفية التي تتطلبها الاستفادة الضرورية من معطيات السيرة والسنة النبوية والقرآن الكريم خاصة، والخبرة الحضارية للأمة والبشرية بصفة عامة؟**

وكما سبق أن أوضحنا فإن ما قدمته هذه المداخل أو المناظير المعرفية وغيرها مما لم نذكره هنا[1]، من خدمة جليلة للسيرة النبوية، يشكل الأرضية المعرفية الأساسية لمراحل معرفية أخرى أكثر أساسية وأهمية وضرورة في فهم السيرة، والاستفادة القصوى منها في فهم حقيقة الإسلام، وإدراك مقاصده في الخلق، واستيعاب منهجيته السننية الكلية في التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري من ناحية، والتمكن من امتلاك رؤية سننية متوازنة لبناء علاقة صحيحة وفعالة بالخبرة الحضارية للأمة والإنسانية بصفة عامة من ناحية أخرى.

والملفت للانتباه في العلاقة المعرفية والتسخيرية للأمة، بهذا التراث المعرفي المدخلي الضخم للسيرة النبوية،، هو اقتصار الجزء الأعظم من هذه العلاقة على حفظ وتعليم وتبليغ هذه المادة الخامية الأولية كما هي في الغالب، ولم تحدث طفرات تطورية معتبرة في مناهج دراسات السيرة النبوية، التي ظلت منجذبة بشدة إلى الوصفية السردية التقريرية، وإلى التحليلية التجزيئية، وإلى الذاتية المفتوحة على الذوقية غير المنضبطة [2]، وحتى الدراسات أو الاهتمامات الحركية التي انتجت ما عرف بفقه الدعوة أو مناهج الدعوة لم تذهب بعيدا عن هذه الأفق السائد، رغم ما قدمته من ثروة إضافية مهمة.

وفي هذا السياق يحسن بنا أن نورد هنا ما لاحظه الدكتور أكرم ضياء العمري من خلال تعامله الطويل مع التراث التاريخي للأمة عامة، وتراث السيرة النبوية خاصة، حيث يقول: " ويكفي أن القارئ لدراسة حديثة في السيرة لا يكاد يحس فرقًا مهمًا بينها وبين كتاب سيرة ابن هشام أو زاد المعاد على تباين أسلوب ومنهج الكتابين، رغم التطور الهائل في الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث. وما تقدمه العلوم الحديثة من معطيات ضخمة تخدم الدراسات الاجتماعية، وللأسف فإننا

---

[1] أنظر: معجم ما ألف في السيرة للمنجد، و مصادر السيرة النبوية وتقويمها للدكتور فاروق حمادة.

[2] إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، الطيب برغوث، مرجع سابق/40

نعيش على حافة العلم الحديث و لم نجرؤ على اقتحامه لنفيد من معطياته الثرية المتنوعة، مع أن ما ورثناه من أسلافنا في حقل التأليف التاريخي أعظم بكثير مما ورثه المؤرخون الغربيون عن أسلافهم.

وإذا كان النقد التاريخي يبدو ضعيفًا في دراساتنا، فإن التحليل للروايات والتعامل معها يبدو أكثر قصورًا ؛ بسبب النظرة التجزيئية للقضايا، والسطحية في التعامل مع الروايات، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ ودور الفرد والجماعة والعلاقات الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية والربط بين المقدمات والنتائج، فضلاً على أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي بسبب اعتمادها على سرد الرويات فقط ؛ إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم للسنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ، رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح. بل إن أحدًا من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية للتاريخ وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح، وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم "[1].

إن هذه الملاحظة تدخل تماما في صميم الإشكالية التي تتناولها هذه الدراسة، والهدف الذي تسعى إلى المساهمة في تحقيقه، وهو الارتكاز على المنجزات المعرفية الهامة لهذه المرحلة التأريخية والاستثمارية الجزئية أو التجزيئية، للدخول في المرحلة المعرفية الهامة التالية لها، وهي مرحلة القراءة الاستثمارية السننية الشاملة لمعطيات السيرة والسنة والقرآن، على ضوء رؤية أو نظرية كلية متكاملة في فلسفة التاريخ والحضارة، التي كان يفترض أن يبلورها علمي العقيدة والأصول بصفة خاصة، وتنعكس آثارها على بقية العلوم الأخرى، وفي مقدمتها علوم الفقه والتزكية، ولكن ذلك لم يتم بالشكل المطلوب، وهو ما يقع ضمن المسئوليات المعرفية الأساسية للنخب الإسلامية المعاصرة، بعد أن توفرت لها الكثير من الشروط المعرفية المثالية في الثقافة والحضارة الإنسانية المعاصرة.

آثار ضمور المنظور السنني الشمولي التكاملي:

وقبل المضي إلى الحديث عن معالم هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي، الذي ينبغي أن يحكم العلاقة بالسيرة والسنة والقرآن والخبرة الحضارية البشرية بصفة عامة، وحركة الحياة بصفة خاصة، نشير باختصار إلى بعض آثار ضمور هذا المنظور السنني، على العلاقة المعرفية والتسخيرية

---

[1] السيرة النبوية الصحيحة/14، 15

بالسيرة النبوية، وعلى الإسلام نفسه، وعلى حركة الدعوة إليه، وعلى جهود مسيرة النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة[1].

إن التطورات والتحولات المعرفية والثقافية والحضارية الهائلة التي حدثت مع النهضة الحضارية المعاصرة، وخلخلت الكثير من المفاهيم والقيم والأوضاع التقليدية في كل المجتمعات الإنسانية، وهي مستمرة في ذلك، كشفت لنا الكثير من النواقص التي ينبغي أن نتداركها حفاظا على هويتنا ووجودنا ومقدراتنا الحضارية، وتوفيرا للشروط الضرورية المساعدة لنا على تحقيق نهضتنا الحضارية المطلوبة، بعد أن طال بها الطريق، وتشعبت أمامها السبل، وتضاعفت التحديات المحيطة بها[2].

وفيما يلي إشارة لبعض عناوين هذه الآثار:

العجز عن التعبير عن حقائق الإسلام ومقاصده الكبرى. تكريس الحرفية التجزيئية والتنافرية الفكرية والسلوكية. حرمان حركة الوعي من الترعة الاجتهادية التجديدية. العجز عن تحقيق الاقتدائية والاسثمارية الفعالة لمعطيات السيرة. حرمان حركة النهضة الإسلامية المعاصرة من الشروط المتكاملة للتأصيل.

نكتفي بهذه الآثار والمضاعفات السلبية لضمور المنظور السنني الشمولي التكاملي، في العلاقة المعرفية والسلوكية والاجتماعية بالقرآن والسنة والسيرة النبوية، وهي كما نلاحظ مضاعفات ليست هينة، بل هي ذات شأن تعويقي غير عادي[3]، يحول دون استكمال شروط مهمة، لبناء علاقة معرفية وروحية وسلوكية وتسخيرية أكثر أصالة وعمقا وفعالية وتكاملية، مع حقائق القرآن والسنة والسيرة خاصة، ورشد الخبرة الحضارية البشرية عامة، وهو ما يؤكد ضرورة قيام نخب علوم الهداية الشرعية[4] والعلوم الإنسانية بالخصوص، ونخب بقية العلوم الكونية الأخرى، باستكمال بناء هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن، الذي ينبغي أن يحكم العلاقة المعرفية والتسخيرية بالقرآن والسنة والسيرة خاصة، وبقية التراث الفكري والثقافي والحضاري للأمة والإنسانية عامة.

محورية المنظور السنني في الوعي الاستخلافي:

---

[1] مقدمة كتاب الإسلام وصراع الحضارات، عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة رقم 44، قطر 1995. ص/12

[2] الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2004. ص/14

[3] مقدمة كتاب في البناء الحضاري، عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة رقم/21، قطر 1409. ص/16

[4] مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى: دراسة في موقع علوم وعلماء الهداية الشرعية من حركة الاستخلاف البشري، الطيب برغوث، دار الشاطبية، الجزائر 2012.

من كل ما سبق نخلص إلى نتيجة أساسية حاسمة، وهي أن المنظور السنني يشكل المضغة المركزية في مسار حركة الاستخلاف البشري في الأرض، عليه يتوقف كل شيء في مسار هذه الحركة، منه تستمد أصالتها الفكرية والروحية والأخلاقية، وفعاليتها الإنجازية، وقدراتها التكاملية والوقائية، وشروط اطراديتها واستمراريتها التاريخية.

فالمعرفة السننية شرط في تنمية وتعزيز وترشيد قدرات الفهم والوعي، وتنمية وتعزيز وترشيد قدرات حركة الإنجاز والبناء والتجديد، وتنمية وتعزيز القدرات الوقائية المبكرة أو الاستدراكية. فكلما نمت وتعززت هذه المعرفة السننية، كلما تعزز المنظور السنني، وانعكست آثاره الإيجابية الحاسمة على الصيرورات الحضارية الصاعدة المتوازنة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض. وكلما ضعفت أو اضطربت هذه المعرفة السننية، كلما ضعف واضطرب المنظور السنني، وانعكست آثاره السلبية الحاسمة على الصيرورات الحضارية، التي تصاب باختلال التوازن وبالتقهقر المستمر الذي قد ينتهي بها إلى مراحل مقدمة من الضعف والغثائية والتبعية الحضارية.

ومن أجل تأكيد هذا الدور المحوري للمعرفة العلمية السننية الشمولية التكاملية، في تقليص فاعلية الأوهام والظنون والأهواء، والتخلص من سلطان أي شكل من أشكال القَدريات التواكلية المشِلَّة في حياة الإنسان، ومن أجل تعزيز بناء المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن الذي يحكم حركة الحياة البشرية ويوجهها نحو غاياتها وأهدافها المنشودة، جاء في القرآن الكريم التأكيد الحاسم على الدور المفصلي للمعرفة العلمية السننية المتوازنة في حركة الحياة، وكيف يجب أن تكون هي وحدها الإمام المتبع في الحياة، قال تعالى: (**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـــئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**)(الإسراء: 36).

معالم المنظور السنني المقصود:

نشرع الآن في الحديث عن طبيعة هذا المنظور السنني ومعالمه الكبرى، وعن بعض شروط وكيفيات تطبيقه على دراسة السيرة النبوية الشريفة. وهذا كله يتم في سياق الإجابة على الأسئلة الكبرى التي تم طرحها في إشكالية الموضوع، وتمحورت حول: هل في القرآن والسنة نظرية أو رؤية معرفية سننية كونية مركزية كلية متكاملة، لتفسير حركة الحياة وإدارة تحولاتها الحضارية الدائبة؟ ما هي معالم هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية؟ أين تتجلى مصداقية هذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية، في مفردات ومعطيات القرآن والسنة والسيرة النبوية؟ وأين التراث التفسيري للقرآن والسنة، وكتب السيرة النبوية، من هذه الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية؟ وهل توجد في كتب التفسير وشروح السنة القديمة والحديثة، وكتب السيرة النبوية، معطيات

سننية تعين على ترسيخ الوعي بهذه النظرية أو الرؤية السننية الكونية المركزية الكلية لدى أجيال الأمة؟

دوائر تشكُّل معالم المنظور السنني الإسلامي الشمولي التكاملي:

وسنحاول استيعاب خريطة الشبكة السننية لهذه الرؤية أو النظرية الكلية المقترحة لدراسة السيرة والسنة وتفسير القرآن، وتقييم الخبرة الحضارية الإسلامية والإنسانية عامة، من خلال عدة دوائر متكاملة، ترسم في النهاية معالم المنظور السنني الكوني الشمولي التكاملي المتوازن، الذي نتصور بأن الإسلام يتضمنه، أو على الأقل يتسع له، ويقدمه لتفسير وفهم وتدبير أو إدارة الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

وكما سبق أن أكدت مرارا، فإن قصدي هنا ليس هو البحث عن النظريات الجزئية أو القطاعية التي تحكم قطاعا جزئيا محددا من حياة الإنسان، ولكن البحث عن الرؤية الإطارية السننية الكلية المتكاملة، التي تحكم حياة الإنسان كلها، والتي تتحرك وتتفاعل في إطارها كل هذه النظريات الجزئية أو القطاعية اللامحدودة، ليؤدي كل منها دوره؛ بالأصالة والفعالية والكفاءة التسخيرية والاستخلافية المطلوبة.

وفيما يلي عرض مركز حول الدوائر المركزية الأربعة الكلية الأساسية لهذه الشبكة السننية، التي تكوِّن المنظور السنني الذي نقصده، وهي مستخرجة من استقراء المنظور الإسلامي للحياة، الذي تكاملت فيه النظرية مع التطبيق،كما سبقت الإشارة إلى ذلك، من خلال **القرآن** الذي كان يحدد ثوابت المنظور الكلية وآفاقه الكبرى، **والسنة** التي كانت تفسر وتبين وتدقق القواعد التفصيلية لهذا المنظور السنني، **والسيرة** التي كانت تضع ذلك كله موضع التطبيق الميداني النموذجي المطابق للإطار المرجعي الذي يرسمه القرآن والسنة للحياة.

وحددنا دوائر هذا المنظور السنني الإسلامي الكوني بأربعة دوائر كلية، هي:

دائرة المقاصد الكلية للحياة البشرية.

ودائرة المنظومات السننية الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

ودائرة المنظومات السننية الكلية المتعلقة بالتسخير الإنجازي.

ودائرة المنظومات السننية الكلية المتعلقة بالوقاية الحضارية.

ولا شك أن هذه الدوائر الأربعة، بمحتوياتها الكلية المتكاملة، تغطي كل ما تحتاج إليه الحياة البشرية من وضوح في المنظور أو الرؤية السننية الكونية الكلية، التي تفسر للإنسان أسرار الوجود الكوني، وموقعه منه، وتحدد له دوره فيه، وترشِده إلى المسخرات التي وُضعت بين يديه لكي يحتل هذا الموقع، ويؤدي هذا الدور الكوني.

منظومات الدائرة المركزية الأم: دائرة المقاصد الكلية للحياة البشرية

وهي دائرة **المقاصد الكلية** التي تحدد المضغة المفصلية للمنظور، وتتحكم في بقية دوائره المركزية الأخرى بشكل جذري، وتؤثر فيها تأثيرا عميقا مطردا بعد ذلك. وتتكون هذه الدائرة المضغية الأم من أربع كليات أو منظومات محورية من الفقه السنني المتكامل، وهي:

منظومة فقه التوحيد: وهي تقوم على عقيدة توحيد الربوبية والألوهية والعبودية والأسماء والصفات، التي تشكل بؤرة هذه الدائرة المركزية من المنظور السنني الإسلامي، والقطب الذي ينجذب إليه كل شيئ في الوجود، ويستمد منه وجوده وبقاءه ووظيفته[1]، كما جاء ذلك في تفسير معنى الصمد والصمدية فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن الصمد يعني " السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللَّه سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان اللَّه الواحد القهار "[2].

فالتوحيد هو قطب الرحى الذي تدور حوله حركة الكون كلها، وتقوم عليه الخلافة البشرية في الأرض، وأي خروج عن ثوابته وضوابطه، يخل بمقتضيات الخلافة، ويعرِّض الوجود الإنساني لأخطار محققة في العاجل والآجل، كما هو مستفيظ في القرآن والسنة، ومؤكد في الخبرة البشرية على مر التاريخ. ويكفي هنا أن نذكر بما جاء في قوله تعالى: (**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**)(الحج: 31)، ومن أراد التأكد من حقيقة عواقب الإخلال بثوابت التوحيد ومقتضياته، فعليه أن يدرس تاريخ الإنسانية[3]، كما جاء ذلك في مثل قوله تعالى: (**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم**

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت 2000. 58/1، 72

[2] جامع البيان عن آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة 2001 . ج736/24

[3] تفسير المنار، نسخة موقع الشاملة 212/5

مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(النحل: 36)، ولذلك كان التوحيد هو مرتكز كل الدعوات الرسالية في التاريخ، ومقصدها الكلي الأساس.

ومنظومة فقه الخلافة: وهي تقوم على عقيدة كون الإنسان خلق ليكون خليفة في الأرض[1]. كما جاء ذلك في القرآن: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة: 30)، بكل ما تعنيه هذه الخلافة من ابتلاء، وتشريف، وتميُّز، وتفضيل، وسيادة، وتكريم، وتفويض، وائتمان، وتكليف، ومسئولية، وجزائية عاجلة وآجلة، وتأهيل للإنسان للحياة الأخروية[2]. فالمهمة الوجودية للإنسان في الأرض هي إنجاز خلافته فيها، بالسيادة فيها، والائتمان عليها، والاستمتاع بما أودعه الله فيها من خيرات ونعم لا تحصى، والاستفادة منها في تهيئة حياته الأخروية، في إطار الالتزام بتنفيذ الاستراتيجية العامة التي وضعها الله تعالى لهذه الخلافة في الأرض.

فالخلافة في الأرض بالمضامين التي ذكرناها، هي الأمانة التي تحملها الإنسان كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**)(الأحزاب: 72)، وجل ما جاء من تفسيرات لمفهوم الأمانة في هذا النص القرآني التأسيسي، ما هو في الحقيقة إلا أمثلة ونماذج جزئية عن المفهوم الكلي لها، وهو أمانة الخلافة البشرية في الأرض، وما حشده الله لها من إمكانات، ووفره لها من شروط شاملة، كان بعضها موضع اهتمام من المفسرين لمعنى الأمانة[3].

ومنظومة فقه العبودية: وهي تقوم على عقيدة كون عبادة الله تعالى وحده هي جوهر مهمة الخلافة في الأرض، كما جاء ذلك في القرآن: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**)(الذاريات: 56). فإذا كانت الوظيفة الوجودية الكلية للإنسان في الأرض هي الخلافة[4]، بالمضامين التي ذكرناها آنفا، فإن العبودية من خلال هذه الآية المؤسِّسة، هي روح هذه الخلافة وعمادها[5].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ط3، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة 1964. ج1/263

[2] مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ط4، دار الشروق، القاهرة 1993. ص/367

[3] راجع التفاصيل في تفسير القرطبي والرازي وابن كثير والسيوطي على سبيل المثال.

[4] خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1993. ص/61

[5] العبودية، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، ص 1999 . ص/19

فالإنسان يكون خليفة لله في الأرض بقدر ما يحقق من العبودية له فيها، ويفقد من معاني هذه الخلافة ومقاصدها، بقدر ما يفقد من معاني هذه العبودية[1].

فالعبودية بما هي توجُّه بالطاعة والامتثال لله وحد؛ حبا وخوفا ورجاء، والتزاما بمنهجه المرسوم للخلافة في الأرض، هي روح الخلافة وجوهرها، وهي شرط تحقيق الإنسان لأعلى درجات حريته وكرامته وإنسانيته[2]. ولذلك فإن أي توجيه للعبادة لأي مخلوق كان، هو إخلال بالعبودية لله، ومن ثم إخلال بمقاصد الخلافة، وخروج عن شروطها ومقتضياتها، وهو ما يتسبب في انعكاسات سلبية عميقة على المنظومتين الرابعة والخامسة من قوانين الدائرة المركزية الأم في المنظور السنني الإسلامي الكوني، وهما منظومة فقه العمران البشري، ومنظومة فقه المصير الأخروي للإنسان[3].

ومنظومة فقه العمران الحضاري: ونقصد بالعمران هنا حركة الاستجابة المتجددة لمتطلبات **المدافعة والمداولة الحضارية** المطردة، التي تفرض على الإنسان فردا ومجتمعا، أن يكيف نفسه مع مقتضياتها وتحدياتها، بتأمين ضرورات وحاجات حياته الفكرية والروحية والاجتماعية والحضارية بالشكل المطلوب، وإلا تعرَّض وجوده لأخطار الاستضعاف والغثائية والتبعية المذلة للكرامة الإنسانية، والمنهكة للمقدرات الحضارية للمجتمع، والمكرِّسة للضعف والتخلف والقابيلة للتبعية، والمفوتة لفرص الاستثمار في تعمير الحياة الأخروية للإنسان، وتعريض مصيره الأخروي للخطر، على اعتبار أن المصير الأخروي للإنسان مرتبط بطبيعة فعاليته الدنيوية[4]، كما استفاض تأكيد ذلك في القرآن والسنة معا، في مثل قوله تعالى: (**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)(هود: 7)، وقوله: (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)(الكهف: 7)، وقوله: (**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (1) **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (الملك:1، 2).

فالعمران كحركة تطور وترقي فكري وروحي وسلوكي واجتماعي وحضاري شمولي تكاملي مطرد، يعد ضرورة وجودية للإنسان، بحكم منطق سنن المدافعة والمداولة الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض كما سنرى ذلك لاحقا. وبحكم محورية العمران

---

[1] تفصيل النشأتين وتحصيل الساعدتين، الراغب الاصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983. ص/79

[2] مجموع الفتاوى، عبد الحليم بن تيمية 79/10

[3] أنظر تفاصيل ضافية عن الآثار المدمرة للشرك في: الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض – السعودية 2001.

[4] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق 181/19

في حركة الاستخلاف البشري في الأرض، جعله الإسلام مقصدا كليا للحياة الدنيوية، وأناط بنتائجه مصائر البشر في الدنيا والآخرة، كما تؤكد ذلك الآيات السابقة، وكما يتجلى كذلك في (سورة العصر) التي استودع الله فيها الأصول الكبرى لسنن الاستخلاف البشري في الأرض، وهي **الإيمان** أي امتلاك رؤية سننية كونية عن الدورة الوجودية الكبرى للإنسان والحياة والكون. **وفعالية وكفاءة الإنجاز**، لإقامة عمران حضاري يتميز بالصلاح والخيرية. **وقدرات وقائية متجددة** لحماية منجزات حركة العمران الحضاري، والمحافظة على استمرارية حركة التطوير والتجديد.

فحركة العمران الحضاري، التي تُلبّى فيها ضرورات وحاجات وتحسينيات حياة الإنسان[1]، بالشكل الأرقى، الذي تتطلبه طبيعة العصر وحاجاته وتحدياته وتطلعات الناس فيه[2]، هي مصب فقه التوحيد والخلافة والعبودية والوعي بالمصير الأخروي للإنسان. ففي ساحات حركة العمران الحضاري، تتجلى مقتضيات وحقائق فقه التوحيد، وفقه الخلافة، وفقه العبودية، وفقه المصير الأخروي، باعتبارها قيما عقدية ومقاصد أخلاقية كلية عليا، تظهر مصداقية استيعاب الإنسان لها، ودقة فهمه لها، وعمق إيمانه بها، في حياته الفكرية والنفسية والروحية والسلوكية والاجتماعية والحضارية بصفة عامة، أي في حركة العمران الحضاري الذي يتجه دوما صوب قمم الإحسان[3]، وينشدُّ نحو آفاقها المفتوحة باستمرار على الكفاءة والإبداعية والجمالية الفكرية والروحية والأخلاقية والسلوكية النموذجية[4]، المستهدية بآفاق الجمالية والكمالية المتناغمة، التي ترسم معالمها منظومةُ الأسماء والصفات أمام الجهد البشري، ليتحرك على ضوئها في إنجاز مقاصد التوحيد، والخلافة، والعبودية، والعمران الحضاري، وتهيئة المصير الأخروي للإنسان.

ومنظومة فقه المصير الأخروي للإنسان: ونقصد بالمصير الأخروي للإنسان، المآلات المرحلية والنهائية التي تعقب نهاية علاقة الإنسان بعالم الشهادة، ودخوله في مرحلة الحياة البرزخية الطويلة، ثم انتقاله بعدها إلى مرحلة القيامة، ومنها إلى مرحلة العرض والحساب والجزاء، ليستقر أناس في الجنة أبدا، وأناس في منطقة الأعراف مؤقتا[5]، ويستقر أقوام في النار أبدا[1]، أو بشكل انتقالي مؤقت يعلم الله مداه، قبل أن ينقلوا منها إلى الجنة[2].

---

[1] المقاصد العامة للشريعة، يوسف العالم، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن 1994. ص/160

[2] المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، الطيب برغوث، أطروحة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر. ص/118

[3] المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، مرجع سابق /119

[4] ابن القيم، مدارج السالكين، دار الكتب العلمية، بيروت 478/2

[5] تفسير الطبري، مرجع سابق 212/10

فالمصير الأخروي للإنسان؛ عبر كل مآلاته المرحلية والنهائية من ناحية، وبما يتضمنه من حساب دقيق، وجزاء عادل عن كل ما فعله الإنسان في دنياه من ناحية أخرى[3]، يشكل مقصدا كليا أساسيا بعد مقصد الإيمان والتوحيد، في المنظور السنني الإسلامي الكوني[4]، بل إنه يشكل أقوى سند للتوحيد والخلافة والعبودية نفسها، لأن الإنسان إذا استحكمت في نفسه عقيدة اليوم الآخر، انعكس تأثيره بشكل عميق على كل جوانب حياته، وانتظم سيره مع سنن الله في التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري، واندفع قدما نحو آفاق الإحسان البعيدة، ليعبد الله كأنه يراه، ويستشعر في الوقت نفسه رؤية الله له [5]. ولذلك جاء التأكيد عليها في القرآن كثيرا، ولازمت فيه التأكيد على الإيمان والتوحيد، حيث غالبا ما يأتي ذكر الإيمان بالله متبوعا بالإيمان باليوم الآخر، كما جاء التأكيد عليها في السنة والسيرة النبوية بنفس المستوى كذلك.

فالإيمان بالله واليوم الآخر هما الكليتان الأساسيتان المحوريتان اللتان تشكلان مضغة الدائرة المركزية الأم المنظور السنني الإسلامي الكوني. ويكفينا هنا ذكر قوله تعالى: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)**(القصص: 77). الذي يضع كلا من الدنيا والآخرة في موقعهما التكاملي الصحيح من حركة الحياة، فتحتل الدنيا مرحلة انتقالية مؤقتة ولكنها مهمة وحاسمة، يتمحور فيها هم الإنسان واهتمامه حول تهيئة المآلات الأخروية لمصيره الوجودي كله، ويؤدي الإيمان بالحياة الآخرية دور الشاحذ الرئيس لليقظة والفعالية الروحية والاجتماعية للإنسان في الحياة، كما نلمس ذلك من هذا الحديث النبوي البالغ الدلالة التربوية في هذا المجال، والذي جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام: **(من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)**[6]. فالوعي الأخروي شاحذ عظيم الفعالية في استقامة الحياة الدنيوية للإنسان على سنن الله في التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري، واستشراف الحياة الأخروية السعيدة الموعودة.

---

[1] فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان، مرجع سابق 306/3

[2] الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ط7، دار النفائس، الأردن 1998. ص/61

[3] فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق 292/3

[4] العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط5، دار القلم، دمشق 1983. ص/622

[5] صحيح البخاري برقم/4777

[6] صحيح سنن الترمذي، ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1408. حديث رقم/2465

وخلاصة الوعي بمحتوى الدائرة المركزية الأم، المشكلة للمقاصد الكلية للحياة، في المنظور السنني الإسلامي الكوني، هي أن هذه المقاصد الكلية تتمحور حول تحقيق التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري، وتهيئة المصير الأخروي للإنسان. وهو ما جاءت كل الديانات السماوية لتأسيس الوعي به، وإعانة الإنسان عليه، كما تدل على ذلك النظرة التحليلية الشمولية التكاملية في المحتوى العقدي والفكري والاجتماعي والحضاري للقرآن والسنة والسيرة النبوية، التي تؤكد مدى محورية هذه الكليات أو المنظومات السننية الخمسة في الوعي الرسالي عامة، وفي الوعي القرآني خاصة، الذي يبين أن كل ما ورد في القرآن من فقه عقدي أو عبادي أو تشريعي أو أخلاقي، أو تاريخي، أو معرفي عام.. وكل ما ورد في السنة من توسيع لدائرة البيان والتفهيم والتفريع لذلك الفقه الكلي، وكل ما ورد في السيرة من جهد لتجسيد سلوكي واجتماعي لكل ذلك في واقع الحياة، يتمحور حول تأسيس الوعي بهذه الكليات المقاصدية الخمسة، وتعميقه في النفوس، وتجسيده في واقع الحياة، وما عداه من مقاصد وكليات فهو خادم لهذه المقاصد الكلية كما نرى ذلك لاحقا في محتوى الدائرتين المركزية الثانية والثالثة من المنظور السنني الإسلامي الكوني.

منظومات الدائرة المركزية الثانية: المنظومات الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف

والسؤال المنهجي المهم جدا بعد تحديد هذه الكليات المقاصدية المركزية الخمسة لحركة الحياة البشرية في الأرض، هو: كيف تتحقق هذه المقاصد الكلية على المستوى العملي؟ أم أن القرآن اكتفى بتحديد هذه المقاصد الكلية للحياة، وترك المجال مفتوحا للجهد والمبادرة البشرية لتتحرك كيفما تشاء لإنجاز هذه المقاصد الكلية للحياة؟ أم أن القرآن لم يقف عند تحديد هذه المقاصد الكلية للحياة، بل مضى قدما لتحديد معالم رؤية أو نظرية كلية واضحة لتحقيق استراتيجية أو مشروع التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة مآلات المصير الأخروي للإنسان؟

والدراسة الاستقرائية للمحتوى العقدي والفكري والعبادي والتشريعي والأخلاقي والتاريخي، والمعرفي العام للقرآن والسنة والسيرة خاصة، والخبرة الثقافية والحضارية البشرية عامة، تؤكد بأن القرآن تضمن رؤية أو منظومة شمولية متكاملة عن القوانين الكلية للدائرة المركزية الثانية في المنظور السنني الكوني للحياة البشرية، والمتعلقة أساسا بالمنظومات السننية الكلية التي وضعها الله تعالى لتجري عليها الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتتجه بها نحو تحقيق مقاصد **التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة المصير الأخروي للإنسان**.

والخلاصة التي يمكن أن تخرج بها هذه الدراسة الاستقرائية، تتمحور حول أربع منظومات سننية كلية، نافذة في حياة الإنسان، وهي التي تقرر طبيعة ومسار حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ومن ثم طبيعة المآلات الأخروية للمصير البشري بعد ذلك، وهي:

منظومة فقه سنن الابتلاء: حيث يلحظ الدارس للقرآن الكريم دراسة شمولية متكاملة، بأن الابتلاء باعتباره وضع لإرادة الإنسان وقواه الهائلة، موضع المسئولية على أمانة الخلافة في الأرض، وعلى أمانة سلطاته الممنوحة له فيها، يشكل القانون الكلي الأول المؤثر في حركة الاستخلاف البشري في الأرض. فالله تعالى وضع الإنسان في حالة ابتلاء شاملة في الأرض، لينجز فيها مقاصد التوحيد والخلافة والعبودية والعمران ويهيئ نفسه لمآلات مصيره الأخروي بعد موته، وما ينتظره فيه من جزاءات غير مسبوقة ولا متخيلة، كما جاء في الحديث القدسي: (**قال اللهُ تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ. فاقرؤوا إن شئتم: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ }**)[1].

فإذا قام الإنسان بحقوق هذه الأمانات تجاه الله الذي استخلفه في الأرض[2]، وتجاه نفسه كمستخلَف في الأرض، وتجاه مسئوليات الخلافة كحركة توحيد وعبودية وعمران حضاري وتهيئة للمصير الأخروي، وتجاه الإمكانات الكونية الهائلة المسخرة له لإنجاز هذه الخلافة، وتجاه الكائنات الكونية ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بخلافته في الأرض، ولم يعتد على حقوق أي من هذه الأطراف، وانسجم جهده الاستخلافي مع سنن الله ولم يناقضها، فإن خلافته ستتحرك على خط الخيرية والإنسانية والبنائية والتكاملية والفعالية الحضارية التصاعدية المتوازنة، ويستمتع بثمراتها الدنيوية العاجلة أحسن استمتاع، وينال حظه من التكريم والمثوبة التامة في المراحل الأخروية التالية من دورته الوجودية الكبرى.

أما إذا اعتدى على هذه الحقوق أو فرط فيها، وتناقض جهده الاستخلافي مع سنن الله، بغفلته عن منطق الابتلاء الذي يحكم خلافته في الأرض، فإن خلافته ستتحرك، تبعا لذلك، على خط الضلال والتنافرية والإهتلاكية الهدمية المنهكة، ويطاله نصيبه من الشقاوة والضنكية المرهقة في حياته الدنيوية، ويعرض مصيره الأخروي للهلاك المحقق، كما جاء تأكيد ذلك باستفاضة في القرآن والسنة معا، في مثل قوله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**)(الأعراف: 96)، وقوله: (**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا**

[1] صحيح البخاري برقم/3244

[2] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000. 146/1

عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)(الجن: 16، 17)، وقوله: (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى** (طه: 123 – 127).

فالابتلاء هو القانون الكلي المحوري الذي يحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ويؤثر بعمق في طبيعة صيرورالها الحضارية، ويعطيها صبغتها الأخلاقية الإنسانية التكاملية الخيِّرة، أو المادية التكاثرية الاستكبارية المتوحشة، ويحدد طبيعة مسارالها ومداها التاريخي.

والنظرة الاستقرائية للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتاريخ الحركة الرسالية في الأرض، تبين لنا فعلا بأن الوعي بقانون الابتلاء هو المحرك المحوري لحركة الاستخلاف البشري في الأرض. ونكتفي هنا بذكر بعض الآيات المؤكدة لهذا الدور المحوري للابتلاء في الحياة البشرية العاجلة والآجلة[1]. كما يتضح ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: (**وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)(هود: 7)، وقوله: (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)(الكهف: 7)، وقوله: (**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**)(الملك: 1، 2)، وقوله: (**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** (الإنسان: 1، 2، 3)، وقوله: (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**)(الأنعام: 165).

إن الموقف من كلية قانون الابتلاء، تنعكس آثاره العميقة على كل مناحي حياة الإنسان بشكل عميق وحاسم، لذلك منحه القرآن والسنة والسيرة النبوية هذا الاهتمام الكبير، سواء على المستوى العقدي، أو المعرفي، أو التربوي، أو الاجتماعي، ليظل وعي الإنسان وحركته مشدودين إليه، ومنضبطين بفقهه بشكل مستمر، وكلما اضطرب هذا الوعي أو تقلص، اضطرب تبعا له وتقلص الوعي التوحيدي، وامتد ذلك ليطال الوعي والأداء العبادي، ثم الوعي والأداء العمراني

[1] أنظر : إبتلاء الإرادة لحبنكة الميداني، وفقه الابتلاء لأبي فيصل البدراني.

الحضاري، ثم الوعي والأداء المتصل بالتهيؤ للمصير الأخروي للإنسان. أي أن التأثير السلبي أو الإيجابي يمس جميع جوانب حياة الإنسان العاجلة والآجلة[1].

ومنظومة فقه سنن المدافعة: وتشكل المنظومة السننية الكلية الثانية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، إذ أن عملية الاستقراء للعوامل الرئيسة الأكثر تأثيرا في الحياة البشرية الفردية والاجتماعية والحضارية، تؤكد على أن طبيعة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، هي التي تحدد مصائر الصيرورات الحضارية للأفراد والمجتمعات والحضارات الإنسانية على مر التاريخ، لم يشذ ولن يشذ عن ذلك أحد من الجماعات البشرية على الاطلاق[2]، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ**)(آل عمران: 137).

فمن كانت مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، من الأفراد والمجتمعات والأمم والحضارات، أكثر أصالة وفعالية وتكاملية واطرادا، كان أقدر على الوفاء بحاجات حياته، وأكثر تأثير فيما حوله، وفي مسار حركة الصيرورات الحضارية الإنسانية العامة. ومن ضعفت واضطربت فعالية مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، كان أضعف على الوفاء بحاجات حياته، وأقل تأثيرا فيما حوله، بل وأكثر تأثرا به[3]، وقابلية للاستضعاف والتبعية الحضارية[4].

ولما كان لقانون المدافعة هذا الدور المحوري المطرد في حركة الاستخلاف البشري في الأرض، فقد أولاه القرآن عناية كبيرة من حيث التأسيس ابتداء، ومن حيث منظومة الشروط التي يتضمنها ثانيا، ومن حيث استعراض تجلياته المطردة في الحياة البشررية ثالثا[5]، ومن حيث الدعوة إلى العناية القصوى بشروطه ومقتضياته رابعا، فقال تعالى على سبيل المثال: (**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**)(البقرة: 251). وقوله تعالى: (**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**)(الحج: 40).

---

[1] مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائ 2004. ص/53

[2] تفسير المنار، نسخة الشاملة 114/4

[3] مقدمة ابن خلدون، دار صادر، بيروت 2000. ص/114

[4] شروط النهضة، مالك بن نبي/165

[5] في ظلال القرآن 4/ 2425

فالمدافعة قانون الحياة الذي يتحكم في طبائع ومسارات الصيروات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض باستمرار[1]. ومن هذا المنطلق فإن من يتأمل مضامين القرآن والسنة والسيرة، بل وكل الخبرات الحضارية للأمة والإنسانية عامة، سيجدها متمحورة في مجملها حول استجماع شروط فعالية المدافعة الحضارية. ويكفينا هنا أن نستحضر نصا جامعا في هذا المجال، دعا فيه القرآن إلى تهيئة كل الشروط الفكرية والروحية والنفسية والسلوكية والاجتماعية والفنية التي ترفع الفاعلية الإنجازية للأفراد والمؤسسات والمجتمع عامة، إلى أقصى مستوياتها المتاحة[2]، لمواجهة تأثيرات وتبعات حركة المدافعة الحضارية، كما يدل على ذلك قوله تعالى: (**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**)(الأنفال: 60).

فالإنسان مضطر لرفع مستوى مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، للمحافظة على وجوده وتوازنه الحضاري، وإلا وجد نفسه مضطرا للتقهقر عن موقعه، والتعرض للاستضعاف، والوقوع في براثن الغثائية والتبعية الحضارية الذليلة.

ومنظومة فقه سنن المداولة: وتشكل المنظومة السننية الكلية الثالثة الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، حيث يلحظ الدارس للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بأن حركتي الابتلاء والمدافعة، تهيمن عليها ظاهرة مطَّردة وهي ظاهرة **المداولة الحضارية** المطردة، التي تعد مصبا نهائيا لحركة المدافعة الحضارية في عالم الشهادة؛ إذ كل الأفراد والجماعات البشرية تتدافع ذاتيا وثقافيا واجتماعيا وحضاريا، من أجل تحقيق المداولة الحضارية في نهاية المطاف.

فكل المجتمعات البشرية تتدافع ذاتيا وبينيًّا، من أجل الوصول إلى حالة من التوازن الذاتي والاجتماعي المتكامل، الذي يسمح للفرد أو المجتمع بتلبية حاجاته الحياتية في حدود احترام كرامته وإنسانيته من ناحية، وامتلاك القدرات الذاتية التي تمكنه من مواجهة التحديات التي تهدد توازنه الذاتي من ناحية أخرى، والارتكاز على ذلك كله لامتلاك قدرات ذاتية نوعية متطورة، تؤهله لدخول مراحل المنافسة والريادة الحضارية، كآخر مراحل التطور الحضاري المطلوب من ناحية ثالثة[3].

---

[1] تفسير التحرير والتنوير 405/2

[2] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 35/8

[3] مدخل إلى الصيرورة الاستخلافية، الطيب برغوث/57

فالمجتمعات البشرية كلها في وضعيةٍ مكابدةٍ متواصلةٍ[1]، لابتلاءات المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية المحيطة بها؛ بعضها من موقع السعي للخروج من وضعية أو مرحلة الضعف والتخلف والتبعية الحضارية، وتحقيق مرحلة الاقلاع الحضاري. وبعضها الآخر من موقع السعي لدخول مرحلة المواكبة الحضارية، وعدم التراجعن عن الوضع الذي تحققله. وبعضها من موقع المضي قدما نحو مرحلة المنافسة الحضارية في مراحلها المتقدمة. والبعض الآخر من موقع المحافظة على الريادة الحضارية التي وصل إليها. أي أن كل المجتمعات البشرية تتحرك نحو تحقيق مداولتها الحضارية من المستوى الحضاري التي هي فيه ابتداء، ومنه نحو المستويات التالية من مسار المداولة الحضارية الطويل، الذي يبدأ بمرحلة الإقلاح الحضاري ويتحرك قدما نحو مرحلة الريادة الحضارية.

والقرآن الكريم يؤصل هذه الظاهرة الحضارية الإنسانية، ويجعلها سنة محورية في حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ويدعو الناس جميعا إلى تأسيس الوعي بها وبمقتضياتها وشروطها، وبالتأمل والدرس المستمر لتجلياتها في التاريخ الحضاري الإنساني، وتوطين وجودهم الحضاري على أساس هذا القانون المحوري الماضي في حركة الكون كلها، وليس في الحياة البشرية فحسب. كما نرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى وهو يعقب على الصدمة الكبيرة التي سببتها هزيمة أحد للمسلمين، فجاء تذكيرهم بقانون الله في المداولة[2]: (**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**)(آل عمران: 140).

وفي آيات أخرى كثيرة ورد كذلك التذكير بهذا القانون المحوري وبمقتضياته، كما يتضح لنا ذلك على سبيل المثال في قوله سبحانه: (**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً**)(**فاطر**: 39). وقوله: (**وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**)(يونس: 73). وقوله: (**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**)(يونس: 14). وقوله: (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**)(الأنعام: 165).

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور 352/30

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، مقابلة وتعليق محمد أحمد الأم، وعمر عبد السلام السلام، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2000. ج 400/4

فالمضمون السنني لمفهوم الخلافة والخلائف والاستخلاف ذاته، كما تعرضه هذه النصوص القرآنية وغيرها، يتمحور حول هذه **المداولة** التعاقبية المهيمنة على الحياة البشرية، التي يتمكن عبرها أفراد وجماعات بشرية، من أن يخلف بعضها بعضا جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وحضارة بعد حضارة[1]، وفق مقتضيات سنن الله في **الابتلاء والمدافعة**، كما سبق بيان ذلك، وسننه سبحانه في **التجديد** كما سيأتي بيان ذلك لاحقا.

ومنظومة فقه سنن التجديد: وتشكل المنظومة السننية الكلية الرابعة الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، إذ أن عملية الاستقراء للعوامل الرئيسة الأكثر تأثيرا في حركة الابتلاء والمدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، ومن ثم في حركة المداولة الحضارية وتقرير مصائر الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، هي **قانون** أو **سنة التجديد**[2].

ففعالية المدافعة الحضارية المؤثرة بشكل حاسم في اتجاه المداولة الحضارية ومداها التاريخي، مرتبطة جذريا بطبيعة وحجم التجديد الذي يحدثه الفرد أو المجتمع في وعيه الثقافي، وفي كينونته وأشواقه الروحيته، وفي أخلاقيته السلوكية، وفي شبكة علاقاته الاجتماعية، وفي شروط كفاءة إنجازيته الحضارية، في قدراته الوقائية. فإذا اتسم ذلك التجديد بالشمولية والأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية، منح حركة المدافعة الحضارية فعاليتها الانجازية المطلوبة، ودفع بحركة المداولة الحضارية باتجاه الحركة على خط البنائية والتكاملية الصاعدة، والسير بالمجتمع أو الأمة على طريق تحقيق مرحلة نهضتها الحضارية التي هي فيها، واسشراف بقية مراحل هذه النهضة[3]، كما تم توضيحها في المبحث السابق.

وإذا ما عجز المجتمع عن إحداث هذا التجديد الشمولي الأصيل الفعال التكاملي المستمر، في علاقاته المعرفية والنفسية والوظيفية أو التسخيرية، بالمنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة التي تحدثنا عن دائرتين منها فيما سبق[4]، وسيأتي الحديث عن الدائرتين الباقيتين لاحقا[5]، جمدت حيويته الاجتهادية، وتعطلت حركته الإبداعية، واستنفذ قدرات وشروط مواكبته لحركة المدافعة والمداولة

[1] تفسير المنار 220/8

[2] مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، الطيب برغوث، مرجع سابق/67

[3] الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث، مرجع سابق/76، 142

[4] هما دائرة منظومة السنن المقاصدية الأم المتكونة من: **التوحيد والخلافة والعبودية والعمران وتهيئة المصير الأخروي**. ودائرة منظومة سنن الاستخلاف المتكونة من: **كلية الابتلاء، وكلية المدافعة، وكلية المداولة، وكلية التجديد**.

[5] هما دائرة منظومة سنن التسخير المتكونة من: منظومات **سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**. و دائرة منظومة سنن الوقاية الحضارية المتكونة من: الوقاية **الاسشرافية المبكرة**، ومنظومة سنن الوقاية **الآنية المرافقة**، ومنظومة سنن الوقاية **الاستدراكية**.

الحضارية المحيطة به إقليميا وعالميا، ودخل في مراحل اجترار مواريثه التاريخية، وتدهورت أوضاعه الثقافية والاجتماعية والحضارية مع مرور الوقت، ودفعت به حركة المدافعة والمداولة الحضارية العالمية من حوله، إلى الخلف نحو دوامات الضعف والغثائية والتبعية الحضارية الذليلة، إمضاء لسنة الله في المداولة الحضارية: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾(الأحزاب: 62).

فالتجديد هو قانون الحياة بلا منازع، وهو شرط الأصالة الثقافية، والفاعلية الإنجازية، ومنطلق المداولة الحضارية الصاعدة، بدونه لا مفر لأي مجتمع أو أمة من الضعف والتراجع والغثائية والتبعية الحضارية[1]، ولذلك منحه القرآن والسنة والسيرة ابتداء، والخبرة الحضارية الراشدة للأمة والإنسانية ثانيا، عناية قصوى، ووُضِع في مكانه الصحيح كقانون محوري لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، كما يتضح ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(الأنفال: 53)، **وقوله سبحانه:** ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾(الرعد: 11).

فالتغيير باعتباره عملية تكييف مستمرة – مقصودة أو مفروضة – للعلاقة المعرفية والروحية والسلوكية والاجتماعية والوظيفية للفرد والمجتمع، بمعطيات منظومات سنن الله الكونية الكلية الأربعة، هو محرك التاريخ والمؤثر الرئيس في صيروراته الحضارية بشكل مطرد، ولذلك قيل بحق " إنها لشرعة السماء: غير نفسك تغير التاريخ "[2]. والتغيير ذاته هو محصلة **عملية تجديد** مستمرة للعلاقات الإنسانية بمنظومات سنن الله الكونية الكلية الأربعة، كما أسلفت، ولذلك فإنه ينبغي الانتقال من الإطار العام لهذه المقولة السننية المركزية في الوعي البشري، إلى ما هو أدق منها وأكثر تحديدا وتوجيها نحو المطلوب، وهو القول: " **جدد نفسك تغير التاريخ** ".

ومن هذا المنطلق، ولهذه الاعتبارات كلها، خلصت بعد عقود طويلة من القراءة والبحث والدراسة المعمقة، والبحث عن رؤية سننية كلية لتفسير وتدبير حركة التاريخ الحضاري البشري، إلى استخلاص إطار عام لنظرية كلية في فلسفة التاريخ والحضارة، تتلخص في كون حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمه باستمرار نظرية أو سنة " **المدافعة والتجديد** ". والموقف الفكري والعملي من معطيات ومقتضيات هذه **المدافعة والتجديد** الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، هو الذي يحدد طبيعة ومسار وأفق **المداولة الحضارية**، ومداها التاريخي بشكل مستمر لا يتغير.

---

[1] أنظر في ضرورة التجديد: التجديد في الفكر الإسلامي، عدنان محمد أمامة، دار ابن الجوزي، دمشق /21

[2] ميلاد مجتمع، مالك بن نبي/35

هذه باختصار منظومات السنن الكلية للدائرة المركزية الثالثة في المنظور السنني الإسلامي الكوني، تبين لنا كيف أن الاسلام لم يكتف بتحديد المقاصد الكلية للحياة ممثلة في: **التوحيد والخلافة والعبودية والعمران والاستعداد الأخروي**، وترك المجال مفتوحا للجهد والمبادرة البشرية لتتحرك كيفما تشاء لإنجاز هذه المقاصد الكلية للحياة، بل مضى قدما لتحديد معالم رؤية أو نظرية سننية كلية واضحة لتحقيق استراتيجية أو مشروع التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة مآلات المصير الأخروي للإنسان، من خلال بناء الوعي بالمنظومات الكلية الأربعة الأخرى التي تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض باستمرار وهي: **كلية الابتلاء وكلية المدافعة وكلية المداولة وكلية التجديد**، والتي تنتهي على المستوى التنظيري إلى " **نظرية المدافعة والتجديد** " كما أسافنا.

منظومات الدائرة المركزية الثالثة: دائرة منظومات سنن التسخير

والسؤال المنهجي المهم التالي، بعد تحديد معالم هذه الرؤية أو المنظومة السننية الكلية، التي تتم عبرها الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد، هو: هل تضمن القرآن والسنة والسيرة رؤية أو منظومة سننية كلية شمولية متكاملة حول فقه الإنجاز الفعلي الذي يضمن تحقق حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشروط ومقومات **الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد**؟ أم أن القرآن ترك المجال مفتوحا للجهد والمبادرة والتجربة البشرية المفتوحة لتتحرك كيفما اتفق أو كيفما شاءت؟

والدراسة الاستقرائية للمحتوى العقدي والفكري والعبادي والتشريعي والأخلاقي والتاريخي، والمعرفي العام للقرآن والسنة والسيرة خاصة، والخبرة الثقافية والحضارية البشرية عامة، تؤكد كذلك بأن القرآن تضمن رؤية أو منظومة شمولية متكاملة عن النواظم السننية الكلية للدائرة المركزية الثالثة في المنظور السنني الكوني للحياة البشرية، والمتعلقة أساسا **بالمنظومات الكلية لسنن التسخير** التي وضعها الله تعالى بين يدي الإنسان ليلبي بها حاجات حركة الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد النافذة في حياته، ويواجه بها تحدياتها الشاملة المتلاحقة، ويمضي عبرها قدما لتحقيق **مقاصد التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة مصيره الأخروي**، التي تشكل مجتمعة ومتكاملة، مهمته الوجودية في الحياة.

والخلاصة التي يمكن أن تخرج بها هذه الدراسة الاستقرائية، هي أن الله تعالى وضع " **ميزانية تسخير كونية** " شاملة ومتكاملة، تضمنت كل ما تحتاج إليه الخلافة البشرية في الأرض، وتتمحور حول أربع منظومات سننية كونية كلية، يرجع إليها كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان من إمكانات

تسخيرية لإنجاز مهمة التوحيد والخلافة والعبودية والعمران والتهيأ للحياة الأخروية، على أكمل وجه، وهي:

منظومة سنن الآفاق: وهي أول منظومة من منظومات سنن التسخير الكونية الكلية الأربعة، الموضوعة تحت تصرف الخلافة البشرية في الأرض. وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالقوانين المتحكمة في العالم المادي؛ في الإنسان وفي الطبيعة والكون من حوله[1]. ومعطيات هذه المنظومة التسخيرية الكونية هي أول وأكثر ما يجد الإنسان نفسه وجها لوجه أمامه، وفي حاجة إليه باستمرار، لتلبية حاجاته الضرورية في الحياة؛ من مأكل وملبس ومشرب ومأوى ومرفه، وصحة، ومن شتى أنواع الإمكانات التي تتطلبها الجوانب المادية في العمران الحضاري البشري. وهو عالم هائل فسيح يشمل أقطار السماوات والأرض التي سُخِّرت وذلِّلت كل مفرداتها وسننها للإنسان، كما نلمس ذلك في مثل قوله تعالى: (**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)(الجاثية: 13). وقوله سبحانه: (**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**)(لقمان: 20).

وهذه المنظومة السننية الكونية الأولى، موضوعة تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانين هذه المنظومة السننية الكونية، عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من الخبرات الإنسانية السابقة، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض، ومواجهة التحديات التي تعترضها، وهو ما يشير إليه القرآن في مثل قوله تعالى: (**كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**)(الإسراء: 20). فعطاء الربوبية ممدود لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فمن اهتدى إلى سننه انتفع به ولو كان كافرا، ومن لم يهتد إلى سننه حرم منه ولو كان مؤمنا[2].

ونظرا للأهمية بل والضرورة القصوى التي تحتلها هذه المنظومة في الميزانية التسخيرية الكونية للخلافة البشرية في الأرض، فقد أولاها القرآن عناية كبيرة، وجاء الحديث عنها مفصلا ومتنوعا ومستوعبا لكل أبعادها، وموجها للفكر والجهد الإنساني للعناية بسنن الآفاق بحثا واكتشافا وتوطينا واستثمارا، وشنع بكل العوائق العقدية أو الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية.. التي توضع أمام العقل الإنساني لكي يذهب بعيدا في التعرف على عوالم سنن الآفاق والتحكم الاستثماري فيها.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 374/15

[2] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة 1997. ج2633/5

ومنظومة سنن الأنفس: وهي المنظومة السننية الكونية الكلية الثانية من منظومات سنن التسخير الكونية الموضوعة تحت تصرف الخلافة البشرية في الأرض. وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالقوانين المتحكمة في كل ما هو فكري ونفسي وسلوكي واجتماعي وسياسي وحضاري في الخلافة البشرية في الأرض، أي في كل ما له صلة بالجانب الإنساني من العمران الحضاري البشري الذي يشكل الساحة الفعلية لتجليات التوحيد والخلافة والعبودية، وتهيئة المصير الأخروي للإنسان، كما سبق بيان ذلك.

فإذا كانت **حركة الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد،** التي تقرر أوضاع ومصائر الأفراد والمجتمعات والأمم في عالم الشهادة والغيب معا، محكومة في جزء كبير منها بقوانين ومعطيات **منظومو سنن الآفاق،** كما أسلفنا، فإن جزءا آخر منها محكوم بقوانين ومعطيات **منظومة سنن الأنفس،** التي تمكن الإنسان من فهم الجانب النفسي والسلوكي والاجتماعي في حياته والتحكم المتوازن فيه من ناحية، وفهم طبيعة المجتمع وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم سنن وآليات قوة وضعف شبكة العلاقات النفسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع وشروط التحكم فيها من ناحية ثالثة، وفهم شروط تحقيق الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية في حركة العمران الحضاري البشري عامة من ناحية رابعة.

والجزء الأكبر من المعرفة التي تتعلق بهذه المنظومة، موضوعة تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة والاقتباس أو التلاقح الثقافي والحضاري بين البشر كذلك، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانين هذه المنظومة السننية الكونية، عبر الملاحظة والتجربة والاستقراء والاستنباط والتعلم، والاستفادة من الخبرات الإنسانية السابقة، ويبني عليها حركة عمرانه الحضاري البشري.

والقرآن الكريم أولى عناية كبيرة جدا للوعي بمنظومة سنن الأنفس، من خلال حديثه عن شبكة واسعة جدا من السنن النفسية والاجتماعية العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها، من خلال الدراسة السننية للتاريخ الثقافي والاجتماعي والحضاري للمجتمعات الإنسانية عامة، كما يتجلى ذلك في مثل قوله تعالى على سبيل المثال: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)(آل عمران: 137).

ومنظومة سنن الهداية: وهي المنظومة السننية الكونية الكلية الثالثة من منظومات سنن التسخير الكونية الموضوعة تحت تصرف الخلافة البشرية في الأرض. وهي تحتوي على كل ما يتعلق بقوانين عالم الغيب وما لا طاقة للعقل البشري للاستقلال به، من قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق وثوابت الفطرة وأصول الاجتماع الحضاري البشري عامة. وهي لا تحصل عن طريق العقل

والتجربة والخبرة والرغبة الذاتية، بل تأتي عن طريق الوحي حصرا. يقول ابن تيمية في مضمون ووظيفة الرسالات السماوية بأن " الأنبياء يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول "[1]، أي بما تحار فيه العقول وتعجز عن إدراكه، وليس بما تستقل العقول بإدراكه، فإنه موضوع تحت سلطة العقل والخبرة والتجربة كما أسلفنا، إلا أن يشذ العقل عن المقصد والهدف ويضر بهما، فيتدخل الوحي لتسديده، وإعادة التوازن له، ليمضي قدما في طريق الملاحظة والافتراض والتجريب والاستنتاج والاجتهاد والتجديد الإبداعي اللامحدود في مجالات سنن الآفاق وسنن الأنفس، وبل وسنن الهداية ذاتها، كما جاء ذلك في الحديث النبوي ذاته: (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**)[2].

والتجديد هنا يتحدث عن الدورات التجديدية الكبرى، التي تحدث ثورات ثقافية واجتماعية وحضارية عميقة في المجتمعات، وليس عن الحركية التجديدية الجزئية الدائبة التابعة لمنطق الإبداعية الاتقانية المطلوبة في كل جهد أو مبادرة يقوم بها الإنسان المسلم في حياته، كما جاء ذلك في الحديث الشريف: (**إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**)[3]، أي أن يبلغ فيه ما يُستطاع من التجويد والإحسان والدقة والكمال، بحيث يخرج فذا في بابه أو صنفه. كما أن الحديث يشير إلى مضغة مركزية في التغيير ألا وهي مضغة الدين والوعي الديني، باعتبار الدين هو مضغة الوعي الثقافي الحقيقية، فإذا ما تم تجديد الوعي به، وتخليصه من كل ما هو ذاتي وظرفي وعرفي وتاريخي بصفة عامة، وإعادته إلى وضعه الطبيعي أو الفطري السنني، فإنه سيحدث تأثيرات جذرية عميقة وشاملة في الفكر والنفس والسلوك والعلاقات الاجتماعية، وفي فعالية الأداء بعد ذلك.

فمنظومة سنن الهداية تكفلت بتكميل ما لا طاقة للعقل به من ناحية، كما تكفلت بحماية العقل ذاته من المؤثرات السلبية التي قد تفقده توازنه وفعاليته التكاملية من ناحية أخرى، وهو ما تعهد به الله البشرية منذ البداية، كما نرى ذلك واضحا في مثل قوله تعالى: (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**)(طه: 123، 124).

فمنذ بداية الخليقة، وتمام مشروع التكليف بمهمة الخلافة في الأرض، تعهد الله تعالى البشرية بمنظومة سننية كونية تعزز فعالية العقل البشري وتحميه من كل ما يضر بهذه الطاقة الهائلة التي منحها

---

[1] مجموعة الرسائل والمسائل، عبد الحليم بن تيمية، مرجع سابق 82/1

[2] صحيح أبي داود، ناصر الدين الألباني برقم/4291

[3] السلسلة الصحيح، ناصر الدين الألباني برقم/1880

الله للإنسان، وفضله بها على كثير من خلقه تفضيلا، وسيده بها عليها[1]. يقول الإمام القرطبي بعد أن يورد أقوالا وتعليلات جزئية عديدة في مبررات تفضيل الإنسان: " والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف،. وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء "[2].

ومن هذا المنطلق فإن منظومة سنن الهداية، لا تعد شيئا إضافيا حاجيا أو تحسينيا على احتياجات الإنسان الأساسية، بل هي من ضمن هذه الاحتياجات الأساسية الضرورية، التي لا يمكن للإنسان أن يستغني عنها بأي حال من الأحوال[3]، وإلا تعرضت حياته الدنيوية لضنكية كبيرة، ليس في أبعادها المادية والاجتماعية فحسب، ولكن في عمق إنسانيتها التي لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر الدين الصحيح، ولحِـــق حياته الأخروية خسران مبين لا يجبر، كما لخص ذلك النص القرآني السابق[4].

فالدين ضرورة وجودية إنسانية، لارتباط عمق إنسانية الإنسان، وأخلاقية العمران الحضاري البشري به من ناحية، ولتوقف المصير الأخري للإنسان عليه كذلك من ناحية أخرى[5]، ولذلك وضعه علماؤنا في مقدمة الكليات الخمس للحياة البشرية، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، لارتباط هذه المحافظة عليها به إلى حد بعيد[6].

ومنظومة سنن التأييد: وهي المنظومة السننية الكونية الكلية الرابعة من منظومات سنن التسخير الكونية الموضوعة تحت تصرف الخلافة البشرية في الأرض. وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالعون والتأييد الإلهي المباشر وغير المباشر للإنسان، في كافة مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراته التسخيرية المستمدة من المنظومات السننية

---

[1] محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت 1418. ج 477/6

[2] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 2/10

[3] المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم، مرجع سابق/222

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب 2355/4

[5] المقاصد العامة للشريعة/214

[6] مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، بكر إسماعيل حبيب، سلسلة كتاب الحق، رابطة العالم الاسلامي، السعودية، ع213 س1427. ص/311

التسخيرية الكونية الثلاثة السابقة، عن مواجهة التحدي المطروح عليه، فيلجأ إلى استثمار معطيات هذه المنظومة السننية التسخيرية الكونية بشروطها اللازمة[1].

فالفعل الإنساني تحيط به ظروف وتحديات مختلفة، قد تفقده توازنه ومبادرته، ويحتاج فيها إلى فعالية أكبر، وربما إلى دعم استثنائي للمحافظة على توزانه، واستعادة مبادرته، وهو ما تكفلت به هذه المنظومة السننية الكونية الرابعة، التي توفر للإنسان دعما إضافيا مستمرا، إن هو عرف وجود هذه المنظومة السننية، وأدرك أهميتها الكبيرة في حياته، وانفتح على معطياتها، واستوفى شروط الاستفادة المباشرة وغير المباشرة منها.

وبتمكن الإنسان من استثمار المعطايات السننية لهذه المنظومة السننية التسخيرية الكونية الرابعة، تبلغ " **الدورة الإنجازية** " لفعله الاجتماعي، أقصى مستويات أصالته وفعاليته وتكامليته واطردايته النموذجية القصوى، لأنه بذلك يكون قد استثمر معطيات أربع منظومات سننية كونية كاملة، وهو ما يمنحه هذه الكفاءة الإنجازية القصوى، وبالتالي لن تقف أمام تأثيرات مدافعته ومداولته الثقافية والاجتماعية والحضارية أية قوة حضارية أخرى، تقتصر على استثمار بعض معطيات هذه المنظومة السننية أو تلك فحسب[2].

وباستيعابنا لمكونات هذه الدائرة المركزية الثالثة من المنظور السنني الإسلامي الكوني، نفهم سر الفعالية الإنجازية غير العادية في الانطلاقة الحضارية الإسلامية الأولى، وتمكُّنها في ظرف زمني قياسي، من مواجهة تحديات حضارية ضخمة، واحتوائها جميعا، والظهور عليها في دورة حضارية غير مسبوقة في التاريخ الإنساني، ما تزال مثار تساؤلات لدى كثير من الباحثين الذين يغفلون عن حقيقة شمولية وتكاملية الاستثمار لمعطيات المنظومات السننية الكونية الأربعة، الموضوعة تحت تصرف الخلافة البشرية في الأرض.

منظومات الدائرة المركزية الرابعة: دائرة سنن الوقاية الحضارية

في ملاحظة مهمة جدا، تتعلق بفقه الثورة أو التغيير عامة، ينبه مالك بن نبي إلى أن مصير الثورات وحركات التغيير والتجديد عامة، ليس مضمونا بمجرد النجاح في إطلاق هذه الثورات أو إحداث هذه التغييرات الكبرى، بل إن الخبرة التاريخية المستفيضة تبين كيف أن نجاح الكثير منها عابر

[1] أنظر تفاصيل هامة عن شروط استثمار هذه المنظومة، في دراستنا عن: المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة. (أطروحة دكتوراه مخطوطة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر).

[2] الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث /169

واحتمالي، وربما تحول إلى ثورة مضادة ! ويخلص إلى نتيجة مهمة جدا في هذا السياق هي أن " نجاح ثورة ما أو فشلها، هو بقدر ما تحتفظ بمحتواها أو تضيعه في الطريق، وهذا كله يخضع لقانون "[1].

وهذه الملاحظة الهامة جدا، تؤكدها مقولة مشهورة في علم الاجتماع السياسي أو التغيير بصفة عامة، فحواها أن الكثير من " الثورات يهيئها المخلصون أو العلماء والمفكرون، وينفذها أو ينجزها المخلصون والأبطال، ويرثها الانتهازيون والجبناء أو ما يعرف بالطابور الخامس.. ". فالتغيير الذي لا يصل إلى أهدافه المرسومة، ولا يحافظ على منجزاته، ويقف في بداية الطريق أو منتصفه أو يتنكب طريقه، ليس تغييرا، بل هو أقرب إلى العبث وهدر الجهد والوقت والإمكانات، وتضييع الفرص، ومراكمة المشكلات ومضاعفة التحديات، كما نبه القرآن على ذلك من خلال هذا المثل الذي ضربه للجهد العبثي الضائع[2]: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً**﴾(النحل: 92).

ومن هذا المنطلق فإن عدم وجود منظومة سننية رابعة تتكفل بمواجهة هذه الظاهرة الخطيرة في حياة الأفراد، وفي مسيرة المجتمعات البشرية، يعد نقصا بنيويا خطيرا في فقه الاستخلاف البشري، لا بد من استدراكه، لإنقاذ الجهد البشري من العبثية المنهكة، وضمان تحقيق التراكمية البنائية التكاملية الضرورية لنجاح أي تغيير في التاريخ. وتحقيق هذه التراكمية البنائية التكاملية في الجهد، مشروط بحماية منجزات حركة التغيير والإصلاح والتجديد أولا، وبضمان استمرارية وديمومة حيوية اندفاعها نحو أهدافها ثانيا، وكل ذلك مرتبط بمدى توفر منظومة متكاملة لفقه الوقاية الحضارية[3]، لذلك فإنه من الناحية السننية، لا بد أن تكون هذه المنظومة موجودة في " **ميزانية التسخير الكونية** " التي وضعها الله تعالى بين يدي البشر لإنجاز مهمتهم في الحياة، ولا بد للعقل البشري أن يهتدي إليها.

والتأمل الاستقرائي في القرآن والسنة والسيرة النبوية، يفضي بنا إلى ملاحظة مدى العناية الكبيرة التي حظي بها هذا البعد في المنظور السنني الإسلامي الشمولي التكاملي، حيث تم التأكيد إبتداء على أهمية وضرورة العناية بهذا البعد الوقائي، ثم توزعت بعد ذلك العناية المركزة بفقه الوقاية على ثلاثة محاور كبرى، لا تخلو منها أية " **دورة إنجازية** " لأي فعل تغييري كبيرا كان أم صغيرا، كما سنبين ذلك لاحقا.

---

[1] بين الرشاد والتيه، مالك بن نبي، ط2، دار الفكر، دمشق 1988. ص/14

[2] جامع البيان، الطبري، مرجع سابق 343/14

[3] سلطة المنهج في الحركة النبوية، الطيب برغوث/ 105، 118

فالبعد الوقائي بعد حاضر مع الإنسان بقوة، في كل مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل التغييري، من خلال مفردات قرآنية وحديثية كثيرة جدا، كالتقوى والاستغفار والتوبة والمراقبة والمحاسبة والمناصحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراعاة العواقب والمآلات، وإتقان الأعمال، ونشدان الجودة العالية فيها... التي ترسخ في ذهن المسلم ضرورة توزيع نظره واهتمامه على كل مراحل وأبعاد " **الدورة الإنجازية** " للفعل، وعدم الغفلة عن أي منها أبدا. ففي ضوء المنظور السنني الإسلامي لفقه التغيير والإصلاح والتجديد، يتحرك المسلم لإنجاز العمل وعينه على البداية أو المرحلة الإنجازية القائمة، والأخرى على المآلات والعواقب والنهايات باستمرار، فيوجه ويعدل ويكيف في مسيرة إنجاز الفعل بشكل مستمر.

وفيما يخص منظومات الدائرة المركزية الرابعة المتصلة بسنن الوقاية الحضارية في المنظور السنني الإسلامي الكوني، فإنها تتمحور حول ثلاث منظومات كبرى هي:

منظومة سنن الوقاية الاسشرافية المبكرة ومستلزماتها: فالتغيير يحتاج باستمرار إلى **حركة وقائية احترازية مبكرة،** تبدأ مع المراحل المبكرة للتفكير في الفعل أو الموقف والشروع في التخطيط له، وتهيئة شروط الانطلاق في تنفيذه، لتُخَلِّصه من أية ثغرات أو نواقص سلبية، بإمكانها أن تؤثر على ألَقِ أصالته، أو تحدُّ من فعاليته، أو تنقص من طول نفسه وإمكانية اطراده. فالوقاية المبكرة وقاية تأسيسية بالغة الأهمية بالنسبة لبقية مراحل دورة إنجاز الفعل أو الموقف، فإذا سلمت من النواقص والأخطاء المفصلية، فإنها ستلد فعلا أو موقفا يمكن التأسيس والبناء عليه، والعكس صحيح كما نبهنا آنفا. وكما قيل بحق، فإن من صحت حلقات سلسلة بداياته، قادته إلى صلاح مسارات حركته والوصول إلى النهايات المأمولة، إن هو أخذ بالوقايات التالية.

فحركة التغيير في المنظور السنني الإسلامي، ملزمة بوضع التدابير والآليات الفكرية والنفسية والروحية والمؤسسية الفعالة، التي تمكنها من استشراف النواقص والأخطاء، والتنبيه عليها، والتحذير منها، بمجرد لمحها أو لمح بوادرها، وعدم التهاون فيها، حتى لا تُعطى الفرصة للنمو والاستفحال والاستعصاء على المعالجة، تجسيدا لاستراتيجية التقوى التي تقوم عليها الحياة الإسلامية كلها. وفي هذا المعنى جاء في الحديث النبوي التأكيد على ضرورة مبادرة النواقص بالتغيير وعدم الغفلة عنها: **(اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)**[1].

---

[1] صحيح الجامع، مرجع سابق، برقم/97

ومنظومة سنن الوقاية الآنية المرافقة ومستلزماتها: ولما كان الفعل الإنساني معرضا باستمرار للضعف وتعتريه نواقص وأخطاء شتى أثناء الطريق، فإن استيفاء المرحلة الاستشرافية المبكرة السابقة لشروطها، لا يكفي في تحقيق الوقاية المطلوبة، بل لا بد من متابعة عملية الإنجاز لتحقيق الوقاية الآنية المرافقة للعملية التغييرية مباشرة، فكل مرحلة من مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل، تحتاج إلى وقاية، ولذلك فإن مرحلة مباشرة إنجاز الفعل في حاجة ماسة كذلك إلى متابعة وقائية مباشرة، ولا يُغفل عن ذلك أبدا، بل يجب أن تتواصل بفاعلية أكبر لترافق عملية التنفيذ والإنجاز للفعل أو الموقف، وتراقب سيرها جيدا، وتخلِّصها من أي مؤثر سلبي على أصالتها أو فعاليتها أو إمكانية اطرادها دون توان.

وفي هذا المعنى جاء في القرآن التنبيه إلى الأهمية الكبيرة لاستمرارية اليقظة في متابعة إنجاز الأعمال، والحذر من الاسترخائية الغافلة، التي عادة ما تعقب الانتقال من مرحلة إلى مرحلة في " **الدورة الإنجازية** " للفعل، حيث يعيش الإنسان نوعا من الهبوط في درجة اليقظة الفكرية والنفسية والروحية والتنفيذية، وفي هذه المرحلة قد تتسرب بعض النواقص والاختلالات للفعل أو الموقف، لتؤثر سلبا على المرحلة التالية من دورته الإنجازية، وربما أثرت كذلك على مراحله السابقة، الأمر الذي يستدعي استمرار تجدد اليقظة الوقائية، كما قال تعالى: (**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**)(الشرح: 7). أي إذا أنجزت فعلا من الأفعال، أو أتممت مرحلة من مراحله، حافظ على ذلك، وواصل الجهد لإنجاز المراحل التالية منه وتأمينها، وهكذا دواليك تتواصل الفاعلية الإنجازية وتتكامل حلقاتها[1].

وكلما نجحت عملية الوقاية في المرحلة الراهنة ساهم ذلك بشكل كبير في توفير شروط وفرص أكبر لنجاح المرحلة التالية، لأن ذلك يحقق كثافة التركيز للجهد والإمكانات والوقت على واجب المرحلة أو الوقت، ما دامت المرحلة السابقة من دورة الفعل قد تمت بدون نواقص أو مضاعفات أو ديون تثقل كاهل المرحلة الراهنة.

وعلى مستوى فقه الإنجاز، فإن نجاح الوقاية المرافقة، يستدعي تدابير وآليات فكرية ومؤسسية فعالة، تباشر عملية الوقاية الفورية المنتظمة، بمجرد لمح النواقص أو الأخطاء، وعدم التهاون في أمرها، وإتاحة الفرصة لها للنمو والاستفحال والاستعصاء على المعالجة بعد ذلك، واحتياج جهود وأوقات وإمكانات مضاعفة، على حساب الواجبات والأولويات الراهنة والمستقبلية.

ومنظومة سنن الوقاية الاستدراكية ومستلزماتها: وقد تشذ عن مرحلة الوقاية الاستشرافية المبكرة، أو مرحلة الوقاية الآنية المرافقة، بعض النواقص والأخطاء، ولذلك تتواصل عملية الوقاية لترصد وتستشرف الآفاق المرحلية والاستراتيجية للفعل والموقف في خط سيرهما وتأثيرهما البعيد، وفي

---

(1) التفسير المنير، وهبة الزحيلي 298/30

خطوط تكاملهما وانسجامهما مع بقية مكونات ومؤثرات الحراك الاجتماعي والحضاري الكلي في المجتمع والأمة والعالم.

فإذا ما تم لمح أي نقص أو خلل في أية مرحلة من مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل أو الموقف، وجبت المبادرة إلى الاستدراك وتصحيح الوضع، دون توان، حتى ولو تعلق ذلك بمراحل سابقة، لأنها قد تؤثر سلبا في واقع الأفراد أو المجتمع، إن عاجلا أم آجلا.

فالبعد الاستدراكي في عملية التغيير والبناء بعد أساس يضمن سيرا متوازنا لا تربكه المفاجآت، بما يوفره من استعدادات وقدرات لامتصاص الصدمات واستيعاب التحديات بشكل مستمر.

نتائج عرض المنظور السنني:

وباستيفاء المنظور السنني الإسلامي الكوني لهذه الدائرة المركزية الرابعة من منظومات السنن الكلية التي تحتاج إليها حركة الحياة الإنسانية، تكون المعالم الكبرى لهذا المنظور قد اكتملت واتضحت، وأصبحت أمامنا خريطة فكرية ومنهجية متكاملة لتحليل وتفسير، وإدارة الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بالشكل الذي يحقق الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية التاريخية في حركة المدافعة والمداولة الحضارية.

وإذا كان لا بد من صيغة مختصرة ينتهي إليها التعريف بهذه الرؤية أو المنظور السنني الكلي المقترح، كما سبق توضيح ذلك، فإني قد فضلت بأن يُعرف بـــ" **نظرية المدافعة والتجديد** ". هذا هو العنوان الرئيس لهذا المنظور الإسلامي السنني الكلي المقترح. وأنا أفضل عرضه في إطار نظرية كلية، من باب الاحتياط العلمي الذي لا يحمِّل الإسلام ما قد يكون في هذه الرؤية أو المنظور من نواقص من ناحية، إذا ما عرض في صيغة إطار قانون كلي. ومن باب احترام منطق النسبية العلمية كذلك، التي تحكم الاجتهاد البشري من ناحية أخرى، وإفساحا لإمكانية التمحيص والمراجعة والإثراء والاستدراك من ناحية ثالثة.

فعلى الصعيد المعرفي المنهجي الوظيفي، فإن المنظور ينتهي إلى كون الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، من المنظور القرآني، تحكمها بشكل مطرد لا يتخلف، معادلة **المدافعة والتجديد**. فالمداولة الحضارية التي تسم حركة الاستخلاف البشري في الأرض هي في نهاية المطاف محصلة **المدافعة والتجديد**. ففاعلية التجديد الثقافي والاجتماعي والحضاري، تعطي فعالية وكفاءة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، وفاعلية المدافعة تعطي فاعلية المداولة الحضارية، وهكذا دواليك تطرد حركة الاستخلاف البشري في الأرض دون تبدل أو تحول كما تقرر ذلك في القرآن: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**)(**فاطر**: 43).

هذا هو المنظور الذي ينبغي أن يحكم علاقاتنا المعرفية والوظيفية أو العملية بالقرآن والسنة والسيرة النبوية، وبمجمل الخبرة المعرفية والحضارية للأمة والإنسانية عامة؛ تحليلا وتفسيرا واستشرافا واستثمارا، إذا أردنا فعلا أن نضمن لجهدنا التجديدي أصالته الفكرية والروحية والأخلاقية، وفعاليته وكفاءته الإنجازية، وتكامليته الاجتماعية، واطراديته التاريخية الممتدة في الزمن.

نحو دراسة سننية للسيرة النبوية:

وفي سياق تجسيد هذا المنظور السنني في دراسة السيرة النبوية، ومعرفة كيف تجلت معطياته في كل مراحلها وأبعادها، وكيف ساعد ذلك على إحداث ذلك التحول التاريخي الضخم في المجتمع العربي أولا، ثم في العالم بعد ذلك بسرعة مذهلة، نقدم هنا بعض التوصيات المهمة التي تعين على تحقيق آفاق هذا المشروع الذي لا تقتصر أهدافه على مجرد دراسة السيرة النبوية، بل تتجاوز ذلك إلى تفسير القرآن وشرح الحديث النبوي، وقراءة الخبرات الثقافية والحضارية للأمة والإنسانية عامة، كما سبق التأكيد على ذلك.

والسيرة النبوية هي أخصب مجال أو نموذج لتطبيق معطيات هذا المنظور السنني عليه، فقد اجتمعت فيه بشكل شامل ومتكامل، النظرية ممثلة في القرآن والسنة، مع التطبيق ممثلا في السيرة النبوية، التي جسدت النموذج الإسلامي للفرد والمجتمع والأمة والحضارة على ضوء سقف الحاجات والتحديات القائمة في البيئة والعصر، وهي ميزة تنفرد بها السيرة النبوية الشريفة، من بين سير جميع الأنبياء والمصلحين في العالم، كما سبق بيان ذلك.

ونظرا للأهمية الكبيرة للمشروع، ولتأثيراته الإيجابية البعيدة المدى، على الحياة الفكرية والاجتماعية والحضارية للأمة خاصة، فإنه يحتاج إلى نخبة متميزة من الباحثين المهتمين بهمِّ النهضة الحضارية للأمة، وبمشروع التكاملية الحضارية الإنسانية التي جاء بها الإسلام، تتكون منهم فرق بحثية عديدة، تتولى إنجاز مراحل المشروع أولا بأول، وفق الخطوات التالية:

مرحلة بناء المنظور السنني أولا: أي تعميق الدراسة للمشروع المقترح بين نخبة من الباحثين المقتنعين بأهميته، للوصول إلى توفير حد أدنى من الاتفاق على الإطار الهيكلي العام للمنظور، وتبنيه كنموذج لرؤية سننية متكاملة لدراسة السيرة النبوية خاصة، وقراءة السنة وتفسير القرآن الكريم عامة، وتقييم الخبرة الحضارية للأمة والإنسانية بصفة أعم. وهذه النخبة ينبغي أن تكون متنوعة الاختصاصات المعرفية، من أجل تحقيق سعة وشمولية وعمق وتكاملية النظرة إلى مشروع الرؤية من ناحية، وتجاوز النظرة الاختصاصية الجزئية الضيقة، التي عادة ما تحكم الجهد الفردي مهما كانت

عبقريته من ناحية أخرى، والتمكن من وضع الخطوط العريضة لاستراتيجية إنجاز أهداف المشروع بعد ذلك من ناحية ثالثة.

ونظرا لكون هذه المرحلة تعد مرحلة تأسيسية مفصلية في المشروع، تنقله من الجهد الفردي إلى الجهد الجماعي المؤسسي، وتوفر له شروط تحويله إلى مدرسة فكرية متكاملة مع مرور الوقت وتراكم الجهد، لا بد أن تولى عناية كبيرة، وتُعطى الوقت الكافي لإنجاز أهدافها بدقة.

مرحلة توسيع الوعي بمشروع المنظور السنني لدى نخبة المجتمع ثانيا: بعد تمكن هذه النخبة المؤسِّسة للمشروع، من استكمال بناء الإطار الهيكلي للمنظور أو الرؤية السننية المتكاملة، تشرع في توسيع دائرة نشر الوعي بها في أوساط النخب الفكرية المختلفة في المجتمع، ومحاولة استقطابها للمشاركة في تبني المشروع والانخراط في إنجاز أهدافه الاستراتيجية.

ولا بد هنا من تنظيم دورات مكثفة لشرح فلسفة المشروع وأهدافه ومناهج عمله، لكل الباحثين الذين سيشتركون في إنجاز مشروع التفسير السنني للقرآن والسنة والسيرة النبوية، لتوحيد رؤيتهم، وشحذ طاقاتهم وتركيزها حول عمق المشروع وجوهره، وتقسيم المهام بينهم.

مرحلة وضع خطة لدراسة وتقييم تراث السيرة على ضوء المنظور السنني ثالثا: بعد هاتين المرحلتين، واستكمال بناء قاعدة النخبة البشرية المؤهلة لإنجاز المشروع، يتم الانتقال إلى مرحلة وضع استراتيجية كاملة للمشروع، بكل ما يتطلبه من شروط وإمكانات، والشروع في توزيعه والإشراف على متابعة تنفيذه أولا بأول.

مرحلة إنجاز دراسات مستقلة على ضوء المنظور السنني رابعا: بعد دراسة وتقييم التراث الفكري المنجز في السيرة النبوية، على ضوء هذا المنظور السنني الشامل، وتحديد مناطق الفراغ فيه، يشرع في إنجاز المرحلة الأهم والأعمق وهي مرحلة إنجاز دراسات مستقلة في السيرة النبوية، وفي السنة، وفي تفسير القرآن على ضوء هذه الرؤية السننية الشاملة، المتمحورة حول نظرية المدافعة والتجديد.

مرحلة نقل وتعميم نتائج الدراسات إلى المجتمع خامسا: وحتى لا تبقى نتائج هذه الحركة الفكرية حبيسة البحث الأكاديمي المنعزل عن واقع الحياة، ومن أجل الانتقال من المرحلة الأكاديمية إلى المرحلة التربوية المؤثرة على الحركية الثقافية والاجتماعية، لا بد من تبليغ نتائج البحوث إلى أوسع نطاق ممكن من عموم النخبة في المجتمع بكافة أطيافها أولا، ثم إلى عموم أفراد المجتمع ثانيا، لتتحول إلى تربية وثقافة وسلوك وواقع اجتماعي... وهو المقصد النهائي من كل هذه الجهود المعرفية، والشرط المحوري لتحقيق النهضة الحضارية المطلوبة في المجتمع والأمة.

شروط إنجاز المشروع: ولا شك أن اجتياز كل هذه المراحل، وتحقيق كل هذه الأهداف، يحتاج إمكانيات مادية كبيرة لتلبية حاجات إنجازه، وتمكين الباحثين من كل الشروط المادية والمعنوية التي تشجعهم على أداء واجباتهم في ظروف نفسية مشجعة ومحفزة على العمل. ويدخل في هذا الإطار صرف مكافئات للباحثين، وتغطية نفقات أسفارهم، أو ما تحتاج إليه بحوثهم، أو تنظيم ندوات وملتقيات وورش تكوينية مستمرة، أو تنظيم مسابقات لإنجاز بعض الدراسات وتشجيع المنافسة العلمية، أو نقل نتائج الدراسات إلى المجتمع... الخ.

مؤيدات بناء المنظور السنني في دراسة السيرة النبوية:

أكتفي هنا بذكر عناوين بعض هذه المؤيدات فقط، ومنها*:

1. أهمية تفعيل أصول الفقه في دراسة السيرة[1]:
2. أهمية تفعيل القواعد الأصولية والفقهية في دراسة السيرة:
3. أهمية تفعيل مقاصد الشريعة في دراسة السيرة:
4. أهمية تفعيل مستخلصات علوم التزكية الروحية والسلوكية في دراسة السيرة:
5. أهمية تفعيل مناهج ومستخلصات العلوم الإنسانية في دراسة السيرة:
6. أهمية تفعيل مستخلصات فلسفة التاريخ والحضارة في دراسة السيرة النبوية:
7. أهمية بناء نظرية إسلامية مستقلة في فلسفة التاريخ والحضارة ودراسة السيرة على ضوئها:
8. أهمية دراسة السيرة على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
9. أهمية دراسة القصص القرآني والحديثي على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
10. أهمية دراسة التاريخ الحضاري للأمة على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
11. أهمية دراسة التاريخ الحضاري الإنساني على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
12. أهمية دراسة الواقع الحضاري المعاصر على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
13. أهمية دراسة مواريث الأمثال والحكم الإنسانية على ضوء هذه الرؤية السننية المتكاملة:
14. أهمية إدخال هذه الرؤية السننية المتكاملة في المنظومة الثقافية الإسلامية المعاصرة:

والنتيجة من كل هذه الخطوات، هي الوصول إلى بناء رؤية أو نظرية إسلامية كلية متكاملة في فلسفة التاريخ والحضارة، تحكم نظرتنا إلى الحياة عامة، وتؤطر عملية تحليلنا لصيرواتها الحضارية وتفسيرنا لها، واستشرافنا لآفاقها المسقبلية، وتأثيرنا الإيجابي في مسارها بعد ذلك. فوجود إطار كلي

* أنظر التفاصيل في المحاضرة الأصلية الموسعة.

(1) أبحاث المؤتمر العالمي الثاني لمنظمة النصرة العالمية، وزارة الأوقاف، الكويت 2008. ص/119

لرؤية سننية شمولية متكاملة، أمر بالغ الأهمية في الحياة البشرية، كما سبق بيان ذلك، وهو ما شكل باستمرار، مقصدا محوريا لحركة الرسالات السماوية كلها، وهيمن على الفكر البشري على مر التاريخ، وسيظل مهيمنا عليه إلى نهاية الوجود البشري في الأرض.

وكما أسلفنا فإن السيرة النبوية اجتمع لها من الشروط والظروف الشاملة المتكاملة، ما لم يجتمع ولن يجتمع لأي جهد بشري بل ونبوي آخر قبلها ولا بعدها، ولذلك دُعي المسلمون خاصة والناس عامة، إلى الاهتمام بها، واتخاذها نموذجا وقدوة عليا في الحياة[1]، للاستفادة مما فيها ثروة سننية لا تقدر بثمن، وخاصة فيما يتعلق بمنظومات سنن الهداية والأنفس والتأييد.

وكما سبق أن أوضحنا كذلك، فإن السيرة النبوية لم تدرس بعد من منظور سنني شمولي متكامل، يضعها في سياق الخبرة المرجعية السننية الأم، في الخبرة البشرية عامة، ويعزز رغبة الاهتمام بها والاستفادة منها لدى أجيال الأمة والإنسانية عامة، وقد حان وقت فعل ذلك في حق هذا الميراث السنني الرسالي والإنساني المرجعي الفذ.

إن دخول هذه الرؤية السننية أو النظرية الكلية في الوعي الثقافي الإسلامي المعاصر، وتبني أطروحاتها ومعطياتها في الرصد والتحليل والتفسير والاستشراف والتواصل الاجتماعي، وبناء استراتيجيات النهضة وخططها، سيحدث تحولات شاملة وعميقة في الوعي والأداء معا، لأنه منظور يبني خريطة ذهنية محكمة في فكر المسلم أو الإنسان عامة، ويحيطها بمجال نفسي وروحي متكامل، يعزز إرادة الاستجابة لمقتضيات هذه الخريطة الذهنية السننية المتوازنة لديه، واحترام ما تفرضع وتستدعيه من أحكام وشروط وضوابط في إنجاز الأفعال وأداء الواجبات.

النتائج العامة للبحث

في نهاية هذا البحث يمكن أن نؤكد على النتائج الأساسية التالية:

1. الأهمية الكبيرة للسيرة النبوية في حياة المسلم فردا ومجتمعا وأمة، لما تقدمه هذه السيرة من قدوة مرجعية عليا عن الشخصية الإنسانية النموذجية لكل أجيال الأمة والإنسانية إلى قيام الساعة من ناحية، ولما تزودها به من منهج متوازن في فهم الإسلام، وفي تمثُّله السلوكي، وفي الدعوة إليه، وفي الحركة الاجتماعية المؤثرة به من ناحية أخرى، ولما تقدمه للإنسانية من نموذج منهجي متوازن في الاستثمار الشمولي المتكامل لمعطيات " **ميزانية التسخير الكونية** "، يمكنه أن يخلص البشرية من كل أشكال الازدواجيات المتنافرة في علاقتها بمعطيات هذه الميزانية التسخيرية الكونية.

[1] التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1383. ج74/4

2. إن هذه السيرة النبوية قد خُدمت من نواحي جزئية أو تخصصية عديدة، وفي مقدمتها الناحية التاريخية، حيث نقلت إلينا حياته عليه الصلاة والسلام في أدق تفاصيلها الجزئية، وهو أمر في غاية الأهمية، لأنه يشكل المرحلة القاعدية في الاستفادة من السيرة النبوية، فنحن الآن نمتلك قاعدة بيانات شاملة حول سيرته وسنته عليه الصلاة والسلام، وما تزال الدراسات متواصلة في توثيق وقائع هذه السيرة والسنة النبوية عامة.

3. وبالرغم من هذه الخدمة الشاملة والمتنوعة للسيرة النبوية، فإنها ما تزال بحاجة إلى خدمات أعمق، تنقل العلاقة الفكرية والروحية والسلوكية والوظيفية بها، من الاقتدائية الآلية الجامدة، والاقتدائية الانتقائية المميعة، والاقتدائية الذوقية السائلة، إلى الاقتدائية الموضوعية المقاصدية السننية المتوازنة، التي هي العلاقة الوحيدة التي بإمكانها تحقيق اقتدائية واستثمارية أصيلة وفعالة وتكاملية ومطردة بالسيرة والسنة النبوية الشريفة.

4. وهنا تبرز الأهمية الكبيرة **للوعي بالمنهج** في النفاذ إلى العمق السنني في السيرة والسنة النبوية، وامتلاك القدرة على التعامل المقاصدي المنضبط مع معطياتهما الجزئية اللامحدودة، التي تقدمها لنا الدراسات التأريخية التوثيقية. فالوعي بأصول وثوابت المنهج النبوي في الفهم والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة الوقائية للتحديات، هو الذي يحقق الاقتداء الموضوعي المقاصدي السنني المتكامل، ويخلِّص علاقة المسلم بالسيرة والسنة من كل أشكال الاقتداء اللاسننية.

5. إن المنهج بما هو رؤية وطريقة منتظمة للنفاذ إلى مقاصد الأمور من جهة، وإلى عمق السنن الفاعلة فيها وجودا وعدما من جهة أخرى، وقدرة متزايدة على الاستفادة الفعالة من ذلك كله، في تحقيق أصالة الفهم، وفعالية الإنجاز، وتكاملية الجهد، واطرادية التغيير والإصلاح والتجديد في الحياة من جهة ثالثة، هو السبيل الوحيدة لتحقيق علاقة سننية مقاصدية موضوعية بالقرآن والسنة والسيرة النبوية، تتحرر بمقتضاها من كل أشكال الارتهان الحرفي والعرفي والذاتي والبيئي والزمني.. وتتخفف من أثقال التاريخ والواقع عامة، وتستعيد حيويتها وفعاليتها السننية الفطرية المودعة فيها.

6. وعلى هذا الأساس فإن السيرة وكذا القرآن والسنة قبل ذلك في حاجة إلى المزيد من الدراسات المعمقة فيما يتعلق بالمنهج خاصة؛ إذ بالرغم مما أُصِّل من قواعد للمنهج في علم الأصول خاصة، وحديثا فيما يسمى بفقه السيرة أو فقه الدعوة ومناهجها، فإن ذلك لم يعرف طريقه بشكل معمق ومباشر إلى تأصيل محكم لمعالم المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة الوقائية للتحديات، وظل التناول التأريخي والتجزيئي مسيطرا على التعامل مع معطيات السيرة والسنة عامة.

7. وهنا تبرز الأهمية الحيوية **للمنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن**، الذي يطرح قضايا التوحيد والخلافة والعبودية والعمران والمصير البشري، والمعرفة والمدافعة والتجديد والمداولة الحضارية، على مستوى سنني كوني شمولي تكاملي، تأخذ فيه كل قضية من هذه القضايا الكبرى

مكانتها ودورها وسلطتها بشكل واضح، وبمعايير دقيقة مطابقة للأوزان الحقيقية لهذه القضايا في واقع الحياة الفطرية المرجعية ابتداء، ثم في واقع الحياة الاجتماعية القائمة فعلا ثانيا.

8. إن هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن، الذي يضع معطيات السيرة والسنة، ومن قبلهما معطيات القرآن الكريم، ومن بعدهما معطيات مجمل الخبرة الحضارية للأمة والإنسانية، في سياق الاستجابة لمقتضيات حركة **المدافعة والتجديد والمداولة الحضارية** المطردة، التي تحكم حركة الخلافة البشرية في الأرض بشكل مستمر لا يتغير، هو الذي يستطيع أن يبرز الدور المحوري الحيوي للمنهج، في النفاذ إلى العمق السنني المقاصدي الموضوعي المتوازن الفعال، لمعطيات السيرة والسنة والقرآن قبل ذلك وبعده.

9. إن استجابة الإنسان لمقتضيات حركة " **المدافعة والتجديد والمداولة الحضارية** "، ليست أمرا متروكا لرغبته الخاصة، بل هي أمر مفروض عليه، إذ لا بد أن يستجيب إلى ذلك وفق شروط السقف الحضاري لعصره، وإلا حُكم عليه بالضعف والغثائية والتبعية الحضارية، ذلك هو منطق سنن المدافعة والتجديد والمداولة المهيمنة على حركة الاستخلاف البشري في الأرض. ذلك لأن الإنسان لا يعيش بمعزل عن الحركية الثقافية والاجتماعية والحضارية في بيئته وعصره، بل هو مضطر إلى التجاوب مع ما يجري حوله. فمنطق التاريخ مؤسس على المدافعة. فالإنسان إما أن يدفع باتجاه الخير والتوازن والصعود، وإما أن يُدفع باتجاه الاختلال والضعف والتقهقر.

10. والمدافعة في المنظور السنني الإسلامي لا تعني الصراع المطروح في المناظير الإقصائية الأخرى مادية أو غير مادية، بل تعني الدفع بحركة الحياة نحو الخيرية والتوازن والفعالية التوحيدية والعبادية والعمرانية الخادمة للمصير الأخروي للإنسان، عبر المبادرة إلى فعل الخيرات والتمكين لها في الأرض، ومقاومة المفاسد والمنكرات، وحسر وجودها في الأرض، وحماية مكاسب الخيرية الحضارية المنجزة، وإفساح المجال واسعا للتنافس الشريف النزيه في ترقيتها وتعميم الانتفاع البشري بها، في ظلال أخلاقيات السماحة والإحسان والمرحمة التي يؤسس الإسلام الحياة البشرية عليها، كما يتضح ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**﴾(المؤمنون: 96). وقوله سبحانه: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(فصلت: 34). وقو رسول الله عليه الصلاة والسلام: ﴿**إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانه. ولا يُنزعُ من شيءٍ إلَّا شانه**﴾(مسلم برقم/2594).

11. فالمدافعة في ضوء الرؤية السننية الإسلامية مدافعة إبداعية تنافسية بنائية تكاملية وقائية غيريَّة، مفتوحة على الخيرية الإنسانية بل والكونية العامة، ومؤسسة على احترام بل وحماية التنوع والتعدد وتفاوت القدرات، بعيدا عن منطق الصراع القائم على الأنانية والتكاثرية والاستكبارية والإقصائية والاستحواذية والاستغلالية والاستعبادية.

12. إن هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن، هو الذي يمنح للكليات السننية المقاصدية سلطتها على الحياة، ويحرك بقية المفردات السننية الجزئية في إطارها، ولا يسمح لأية جزئية سننية أن تأخذ أكثر من حجمها، أو تؤدي دورا أكبر منها، على حساب بقية الجزئيات السننية الأخرى، ناهيك عن الكليات المركزية القطاعية أو المقاصدية العامة. وخروج الجزئيات السننية عن سلطة الكليات السننية الناظمة لحركة الحياة والمؤطرة لها في الاتجاه الذي يجب أن تتحرك نحوه، يُحدث اختلالات في حركة الحياة، ويربك سيرها، وهو ما يشبه تماما ما تحدثه الخلايا السرطانية من اضطرابات في الجسم الإنساني، عندما يخرج نمو ونشاط بعضها عن سلطة النظام العضوي القطاعي أو المجالي الذي ينتمي إليه، ويتراكم بطريقة فوضوية، وتمتد تأثيراته السلبية سريعا لتحدث المزيد من الفوضى والاضطراب والدمار في بقية الخلايا والقطاعات العضوية الأخرى الموالية، وهكذا ينهار نظام المناعة الذاتية للجسم، وتتعرض حياة الإنسان للفناء.

13. إن هذا الوضع الذي يؤول إليه الاختلال في سلطة المفردات السننية في ذاتها وفيما بينها، وما ينجم عن ذلك من اضطراب وتدهور واهتلاك في الفعالية الذاتية للأفراد والمؤسسات والمجتمعات، وتخريب في بنية ووظائف شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع والدولة، يعزز الضرورة الحيوية للوعي بسلطة النواظم والمؤطرات السننية المقاصدية الكلية، التي يقدمها المنظور السنني الإسلامي الشمولي التكاملي المتوازن، ويحرك في سياقها وتحت سلطتها بقية المفردات السننية الجزئية القطاعية أو المجالية الأخرى اللامحدودة.

14. والإسلام كخاتم الأديان يقدم لنا خلاصة شاملة ومتكاملة عن هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن، الذي يفسر لنا الوجود الكوني كله ابتداء، ثم الوجود البشري ضمن ذلك الوجود الكوني الأكبر ثانيا، ويضع بين أيدينا رؤية سننية شمولية متكاملة لفهم **المقاصد الكلية للحياة البشرية**؛ ممثلة في كليات التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري، وتهيئة المصير الأخروي للإنسان. ولوعي **القوانين الكلية الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري** في الأرض؛ ممثلة في كليات الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد. ولمعرفة **منظومات سنن التسخير الكونية** الموضوعة بين يدي الإنسان لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض؛ ممثلة في منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. ولتعميق **الوعي بسنن الوقاية الحضارية**؛ ممثلة في الوعي الوقائي الاستشرافي المبكر، والوعي الوقائي المرافق، والوعي الوقائي الاستدراكي اللاحق.

15. إن الإسلام بهذه الرؤية السننية الشمولية التكاملية المتوازنة، يضع أمام الإنسان خريطة معرفية سننية متكاملة، للرصد والتحليل والتفسير والاستشراف والحركة والوقاية الاسراتيجية، ويخرجه من دوائر الوهم والخرافة والقدرية والتواكلية والغثائية والتبعية والمهانة، ويطبع حركته

الاستخلافية في الأرض، بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية التاريخية من ناحية، وبالحركة على خط الخيرية والعالمية والإنسانية والكونية من ناحية أخرى.

16. وخلاصة ما تزودنا به هذه الرؤية الإسلامية السننية الشمولية التكاملية المتوازنة، هي أن الصيرورات الحضارية لحركة المداولة الاستخلافية البشرية في الأرض، يحكمها بشكل مستمر منطق " **المدافعة والتجديد** "، الذي يرتقي في ضوء الوعي القرآني وتجسيدات السنة والسيرة النبوية، وتجليات الخبرة الحضارية البشرية الممتدة عبر التاريخ، إلى ناظم سنني كلي مطرد في الحياة البشرية لا يقبل التغير ولا التبدل والتحول، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً**﴾(فاطر: 43، 44).

17. فالمجتمعات التي تتمكن من تجديد فعالية مدافعتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، بشكل أصيل وفعال وتكاملي ومطرد، على ضوء السقف الحضاري المعاصر لها، تكون لها القدرة على تحقيق إقلاعها الحضاري، أو مواكبتها أو منافستها أو ريادتها الحضارية، وهو ما أكد عليه القرآن في قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾(الرعد: 11). والمجتمعات التي تعجز عن تجديد فعالية مدافعتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، تضعف فعالية مواكبتها لما يجري حولها من تحولات ثقافية واجتماعية وحضارية، وتقذف بها حركة المدافعة والمداولة الحضارية إلى الوراء، لتخلي السبيل لغيرها من المجتمعات التي نجحت في تجديد شروط نهضتها الحضارية، لتمضي قدما نحو أهدافها في الإقلاع أو المواكبة أو المنافسة أو الريادة الحضارية كما يؤكد القرآن ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(الأنفال: 53).

18. هذه هي معالم المنظور السنني الشمولي التكاملي، الذي نقدمه لدراسة السيرة النبوية، وقبلها تفسير القرآن الكريم، وفهم السنة النبوية، وتفسير حركة التاريخ البشري، لأنه المنظور الطبيعي أو السنني الذي يليق بمقام القرآن والسنة والسيرة، وينسجم مع دورها المحوري في حركة الاستخلاف البشري في الأرض. فجل الدراسات التي أنجزت في السيرة النبوية لحد الآن، ما هي في الحقيقة إلا مقدمة لهذه النتيجة أو المقصد المعرفي التربوي المحوري، الذي يجب أن تتجه نحوه الجهود العلمية للنخب العلمائية والفكرية في الأمة، تجاوبا مع الروح السننية السارية في القرآن والسنة، والمجسدة عمليا في السيرة النبوية الشريفة.

19. إن منطق السنن الكونية يقتضي الارتقاء بالنظرة إلى دور القرآن والسنة والسيرة في الحياة، إلى مستوى السنن الكونية العامة، ثم تفسيرها وفهمها والتعامل معها جميعا على ضوء ذلك، وأية علاقة فكرية أو سلوكية أو اجتماعية بالقرآن والسنة والسيرة، لا ترتقي إلى هذا المستوى من الوعي، تظل علاقة منقوصة، لا تسمح بالاستفادة النموذجية الفعالة من معطياتها السننية الضرورية للحياة البشرية، وخاصة في المجتمعات الإنسانية المعاصرة التي تطبعها العلمية والمنهجية والفعالية والجمالية.

فالقرآن وما يلحق به من سنة نبوية تشريعية ثابتة، وسيرة نبوية تطبيقية نموذجية، هو منظومة سننية كونية أساسية من المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، التي تحكم حركة الخلافة البشرية في الأرض، وتضمن سيرها على **خط الخيرية والعبودية والعالمية والإنسانية والكونية** المتوازنة الصاعدة، وتنأى بها عن الحركة على خطوط التيه والعبثية والفساد والضنكية. **هكذا يجب أن تنظر الأمة والبشرية إلى ماهية القرآن والسنة والسيرة ودورها في الحياة،** إذا أرادتا أن تستفيدا من معطياتها السننية المتكاملة، في تحقيق حركة استخلافية أصيلة وفعالة وتكاملية ومطردة من ناحية، وفي تهيئة جدية لمصيرهما الأخروي المنتظر من ناحية أخرى.

20. إن الباحث يتصور بأن هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي، لو تمت بلورة الوعي به، وأخذ طريقه إلى دراسات السيرة والسنة والقرآن وحركة التاريخ الحضاري للأمة والإنسانية بصفة عامة، سيحدث نقلة نوعية عميقة في الوعي والأداء معا، وسيساهم بفعالية في تصحيح مسار حركة النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، التي طال بها الطريق في دروب ومتاهات التجزيئية المستفحلة، والاستئنافية المزمنة، والتنافرية والاهتلاكية الذاتية المنهكة.

21. كما يرى كذلك بأن النهضة الحضارية للأمة والإنسانية عامة، تحتفظ بهويتها وروحيتها وأخلاقيتها الإنسانية، بقدر ما يكون للوعي القرآني والنبوي حضور قوي، في صياغة إستراتيجيات هذه النهضة وإدارة خطط وبرامج تجسيدها في واقع الحياة. وتفقد هويتها وروحيتها وأخلاقيتها وإنسانيتها، بقدر ما يتقلص حضور الوعي القرآني والنبوي فيها.

والوعي القرآني والنبوي الذي يؤثر بعمق في هوية النهضة الحضارية، ويمنحها أبعادها الروحية والأخلاقية والإنسانية المطلوبة، هو الوعي الذي يستند على فهم سنني للقرآن والسنة والسيرة، ويتخلص من كل ما هو ظرفي وعرفي وخصوصيات تاريخية، لشخص أو مؤسسة أو بيئة أو مرحلة أو عصر. وبدون الارتقاء بالوعي القرآني والنبوي إلى هذا الأفق السنني العام، المتجاوز للخصوصيات الذاتية، والظرفيات الزمانية والمكانية والعرفية، فلن يكون لهما تأثير حقيقي فعال على أصالة النهضة الحضارية للأمة والإنسانية عامة، لأنهما حينئذ سيكونان رهينين للظرفية الزمنية

والمكانية والعرفية التاريخية، التي تحجب أفقهما السنني العام، وتكبح جماح تأثيره في حركة النهضة الحضارية.

22. إن عظمة القرآن والسنة والسيرة النبوية، تتجلى أكثر، بإعمال المنظور السنني المودع فيها، في دراستها وفهمها والاستفادة منها، باعتبار المعرفة السننية المطابقة لفطر وحقائق المفردات الكونية، هي المفسر الأساس للقرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية. فالقرآن كقطاع سنني كوني، جاء ليفسر لنا حركة الحياة في غاياتها الكلية، ويدلنا على المفاتيح الكلية التي تعيننا على فهم هذه الحياة، والقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض على الوجه الصحيح الذي أراده الله تعالى، ولذلك فإننا كلما ازددنا معرفة بسنن الله في الخلق، كلما ازددنا معرفة بأسرار القرآن والسنة والسيرة، ووعيا بعظمتها جميعا، وحرصا على توثيق الارتباط بها، وعملا على تجسيد مقتضياتها في حياتنا الخاصة والعامة.

فهرس المصادر والمراجع

ملاحظة: هذه القائمة من المصادر والمراجع مرتبطة بالنص الأصلي للمحاضرة، ولعل بعضها سقط عند تلخيصي لها، ولم يسعفني الوقت لاستدراك ذلك هنا. كما أنبه إلى أنني اعتمدت في الغالب على كتب مصورة منزلة من مواقع عدة، بعض هذه الكتب لا يحمل تاريخ النشر.

1. أبحاث المؤتمر العالمي الثاني لمنظمة النصرة العالمية، وزارة الأوقاف، الكويت 2008.
2. الأبطال، توماس كارليل، ترجمة محمد السباعي، مكتبة مصر، القاهرة 1994.
3. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997.
4. إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، الطيب برغوث، وزارة الأوقاف الكويتية 2007.
5. بين الرشاد والتيه، مالك بن نبي، ط2، دار الفكر، دمشق 1988.
6. التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1383.
7. التفسير الديني للتاريخ، محمود الشرقاوي، مطبوعات الشعب، القاهرة.
8. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ط2، دار الفكر، دمشق – سورية 1998.
9. تفسير المنار، محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990.

10. التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت.
11. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة.
12. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990.
13. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983.
14. التوحيد والتزكية والعمران، طه جابر العلواني، دار الهادي، بيروت 2003.
15. جامع البيان عن آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة 2001.
16. جامع الرسائل، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق رشاد سالم، دار العطاء، الرياض – السعودية 2001.
17. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ط3، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة 1964.
18. جوامع السيرة، ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف، القاهرة.
19. حجة الله البالغة، أحمد شاه ولي الله الدهلوي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 2005.
20. الخالدون مائة، مايكل هارت، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة.
21. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ط3، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية 1983.
22. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1993.
23. الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت.
24. الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، دار الأمان للنشر، القاهرة 1995.
25. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، مقابلة وتعليق محمد أحمد الأم، وعمر عبد السلام السلام، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2000.
26. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998.
27. سلطلة المنهج في الحركة النبوية، الطيب برغوث، طبعة دار النعمان، الجزائر 2012.

28. السلسلة الصحيحة، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

29. سلطة المنهج في الحركة النبوية، الطيب برغوث، النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 1012.

30. السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، أحمد جمال العمري، دار المعارف، القاهرة 1988.

31. السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مركز بحوث السيرة والسنة النبوية، قطر 1991.

32. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبي الفضل عياض، ط3، تحقيق عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت 2006.

33. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة 1400.

34. صحيح سنن الترمذي، ناصر الدين الألباني، تحقيق زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1408.

35. صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، ط3، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1408.

36. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ناصر الدين الألباني، دار الصديق 1414 (موقع الدرر السننية).

37. صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية، محمد بن رزق الطرهوني، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة 1410.

38. صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان – الأردن.

39. صحيح السيرة النبوية إبراهيم العلي، دار النفائس، الأردن 1995.

40. صحيح السيرة النبوية لابن هشام، إعداد مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر 1995.

41. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسبوري، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1374.

42. شبابك مدى الحياة، ممهت أوز، ومايكل رويزن، ترجمة سعيد العظم، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان 2008.

43. العبودية، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، ص 1999.

44. العقدية الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط5، دار القلم، دمشق 1983.

45. العلم في منظوره الجديد، روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1989.

46. العولمة والإسلام: نظرتان للعالم، سيف الدين عبد الفتاح، دار الفكر، القاهرة 2009.

47. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت 1992

48. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت – لبنان.

49. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، المطبعة الأدبية، القاهرة – مصر 1317.

50. الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2004.

51. فقه التدين، عبد المجيد النجار، سلسلة كتاب الأمة رقم/22، قطر 1410.

52. فقه السيرة محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1965.

53. الفوائد، ابن قيم الجوزية، ط2، دار الكتب العلمية - بيروت 1973.

54. في ظلال القرآن، سيد قطب، ط15، دار الشروق، بيروت - لبنان 1988.

55. قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي وسلاحه ودوابه، عبد الحليم بن تيمية، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، نشر أضواء السلف 2002. (موقع مكتبة المدينة الرقمية).

56. كن أنت نفسك، كوب مايير، الترجمة النرويجية، أوسلو 1983.

57. لسان العرب، ابن منظور، (نسخة المكتبة الشاملة).

58. لمحات في فن القيادة، ج. كورتوا، ترجمة هيثم الأيوبي، ط3، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1980.

59. مجموع الفتاوى، عبد الحليم بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت 2000.

60. مجموعة الرسائل والمسائل، عبد الحليم بن تيمية، علق عليها محمد رشيد رضا، دار طيبة، الرياض.

61. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت 1408

62. مختصر الجامع في السيرة النبوية، سميرة الزايد، المطبعة العلمية، دمشق 1995.

63. مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2004.

64. المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية 1991.

65. .مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق 1988.

66. مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فاروق حمادة، ط3، دار القلم، دمشق 2002.

67. معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1982.

68. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت (د. ت).

69. مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، بكر إسماعيل حبيب، سلسلة كتاب الحق، رابطة العالم الاسلامي، السعودية، ع213 س1427.

70. مقدمة كتاب الإسلام وصراع الحضارات، عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة رقم 44، قطر 1995.

71. مقدمة كتاب في البناء الحضاري، عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة رقم/21، قطر 1409.

72. مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى، الطيب برغوث، دار الشاطبية، الجزائر 2012.

73. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ط4، دار الشروق، القاهرة 1993.

74. من فقه التغيير، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت 1995.

75. المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، سالم أحمد محل، سلسلة كتاب الأمة، ع60، قطر 1997.

76. المنهج الحركي للسيرة النبوية، محمد منير الغضبان، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن 1990.

77. المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في المرحلة المكية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2004.

78. الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

79. ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق – سورية 1986.

80. اعتمدت كثيرا على موقع: **dorar.net** في تخريج الأحاديث النبوية.

81. اعتمدت كثيرا في مصادر التفسير على برنامج: **المكتبة الشاملة**.

82. كما اعتمدت كذلك كثيرا على برنامج: **الجامع التاريخي لتفسير القرآن الكريم**.

83. وبرنامج: **الباحث في القرآن الكريم** لعزو الآيات.